شركاء التواصل اللغوي وكيفية استعمال الوسائل اللغوية وغير اللغوية في صناعة الخطاب وفي تلقيه

أ.د. عبد القادر هني
قسم اللغة العربية وآدابها
-جامعة الجزائر -2

توطئة:

يفرض علينا العنوان الذي اخترناه لمقالنا أن ننطلق من سؤال مؤداه: هل يُشرك منشئ الخِطاب* متلقيه في صناعة خطابه أم يتعامل معه بوصفه مُستهلكا سلبيا لما يُقدم له في الخطاب ليس إلا؟.

المسألة في هذا المضمار تتعلق بالاعتراف أو عدم الاعتراف بالمتلقي شريكًا كامل الحق في عملية التواصل التي تجري بين المتخاطبين بوساطة اللغة التي هي الأداة المشتركة الأولى بين أقطاب عملية التواصل، وإن لم تكن القاسم المشترك الوحيد بينهم، على اعتبار أن أي تواصل يجري بين متخاطبين سواء أكان هذا التواصلُ شفويا أم كتابيا تتدخَّل فيه جملة من العوامل يتوقف إنجازه ونجاحُه أو إخفاقُه بها مجتمعة، ولا تتوقف مسؤولية ذلك على اللغة وحدها.

صحيح، هناك عدد من علماء اللغة ومن اللسانيين قديمًا وحديثًا عرَّفوا اللغة على أنها أداة تواصل، فابن جني في "باب القول على اللغة ما هي" يقول:" أما حدُّها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1] وفي نفس هذا الموضوع يقول الزجاجي:" **إن الله عزوجل إنما جعل الكلام ليعبر به العباد**

(1)- أبو الفتح ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، طبعة القاهرة، 1/ 33.

عما هجس في نفوسهم وخاطب به بعضهم بما في ضمائرهم مما لا يوقف عليه بإشارة ولا إيماء"[1].

إن الإلحاح على الوظيفة الاتصالية للغة واضحٌ في كلام ابن الجني وفي كلام الزجاجي، لأن تعبير المرء عن أغراضه وعمّا هجس في نفسه، ليس موجهًا لذات نفسه في مثل هذه الحال، إنما وهو يُعبّر (سواء أحدث ذلك شفويًا أم كتابيا) فإنه يتوجه بخطابه إلى الأغيار ممن يشاركونه في استخدام هذه الأداة للتواصل.

حسب ما ذهب إليه بايلون (Christian Baylon) ومنيو(Xavier Mignot) فإن عددًا كبيرًا من اللسانيين الوظيفيين المحدثين يجعلون من التواصل (Communication) الهدف الأساسي للغة [2]. فالقول إن الوظيفة الأولى للغة هي التواصل يعني في تقديرنا التواصل مع الآخر لإفادته بأمر ما من خلال الرسالة اللغوية (message) التي وجهها إليه*. فما يبدو من ظاهر ما قيل بهذا الشأن سواء عند ابن الجني وعند الزجاجي أو عند اللسانيين الوظيفيين الذين قصدهما بايلون ومينيو أن الأمر بيد مستعمل اللغة وحده، فهو يتوسل باللغة ليعبر من خلال ما ينتجه من نصوص (شفوية أو مكتوبة)، عن أشياء تخصه أو تخص محيطه الاجتماعي وما اتصل به، ويكون مستقبل هذه النصوص التي يُضَمِّنُهَا صائغها ما يشغله من قضايا أو ما يريد تبليغه من

---

(1)- الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، القاهرة، 1959، ص.42. وينظر عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية ، ص. 49.

* سنستعمل: منشئ الخطاب والمخاطب، وصانع الخطاب وناسج الخطاب والمؤلف بمعنى واحد والمخاطب والمتلقي والجمهور بمعنى واحد أيضا.

(2)- Christian Baylon, et Xavier Mignot, La Communicaton , 2 ème éd Nathan Paris, 1999, p . 77.

Voir aussi Judith Lazar, La science de la communication, serie, que sais je ? P. U. F, Paris, 1992, p.80.

معان وأفكارتتصل بشؤونه أوبالعالم المحيط به، ليلقاها المقصود بالخطاب جاهزة من خلال قاسم مشترك بينهما هو اللغة. فإلى هنا يبدو وكأن منجز الخطاب هوسيد الموقف وربانُه وأنه ليس لمتلقي خطابه أي دخل في صناعة هذا المنجز اللغوي. فكأن الرسالة التي يتضمنها الخطاب تنقل من صائغها إلى متلقيها تامة مكتملة كما ينقل الشيء من يد المانح إلى يد الممنوح له حسب تعبير كاترين كيربرات أوريكيوني منتقدة رومان جاكسون فيما يفضى إليه التعريف الذي وضعه للغة. (1)

1 - مراعاة منشئ الخطاب متلقيه في صناعته:

يبدو لنا من المهم، في سياق تحديد الدور الذي يعود للمتلقي في صناعة الخطاب الموجه إليه أن نُذَكّر أن لكل من الخطاب الشفوي والخطاب المكتوب خصوصيتَه في تحقيق التواصل، وإن كانت اللغة قاسمًا مشتركًا بينهما. كما أنه مثلما أن لمنشئ الخطاب الشفوي شريكا في عملية التواصل، فإن لمُنشئ الخطاب المكتوب شريكه هو الآخر،، سواءً أكان هذا الشريك معينا ومعروفا لدى الكاتب أم كان جمهورًا افتراضيا، لأن الكاتب لا يكتب في فراغ وخالي الذهن تمام الخلو ممن سيقرأ ما هو بصدد كتابته. فكما يقول جون بول سارتر : « ليس بصحيح أن المرء يكتب لنفسه (...) ولكن عملية الكتابة تتضمن عملية القراءة لازما منطقيا لها. وهاتان العمليتان تستلزمان عاملين متميزين الكاتب والقارئ (...) فلا وجود لفنٍ إلا بواسطة الآخرين ومن أجلهم » (2) فما دامت الكتابة دعوة موجهة من الكاتب إلى القارئ مثلما أكد سارتر في مواضع أخرى من كتابه " ما الأدب" (3)، فإن هذا القارئ ستكون له

(1)- Katherine Kerbrat- Orecchionie, L'énonciation, Armand Colin, Paris 1997, p. 16.

* قال جون بول سارتر : « غاية اللغة الاتصال بالآخر والإفضاء»، جون بول سارتر ما الأدب ترجمة محمد غنيمي هلال ، دار النهضة المصرية للطباعة والنشر ، مصر (د. ت)، ص. 21.

(2)-جون بول سارتر، ما الأدب، مرجع سابق، ص 49.

(3)- ينظر مثلا المرجع السابق، ص 53 - 58 وص 65.

صورة على الأقل في ذهن المؤلف حتى قبل الشروع في الكتابة وإلا كانت كتابة سابحة في فراغ، كتابة من دون غاية، لذلك فإن من النقاط التي تعرض لها سارتر في الفصل الثالث من كتابه المذكور ما يلي إن « كل الأعمال الأدبية محتوية في نفسها على صورة القارئ الذي كتبت له "[1]، وهذه الصورة ليست سوى نتاج مما يرشح من ذهن المؤلف على نصه، وهو ما نلمسه بوضوح في بعض الأعمال الإبداعية، ويمكننا أن نمثّل لذلك بمؤلفة رواية " الحب في زَمَنِ حربٍ" لويز ترامبلاي ديسيامبر(Louise Tremblay d'Essiambre) التي تخاطب قراء روايتها مُتحدثة إليهم عن شخصياتها على النحو الآتي :" لو تعرفون المتعة المؤثرة التي أشعر بها كل صباح عندما ألقاها مثلما هي، أجد هذه الشخصيات جميلة كل بطريقتها (...)[2] وتضيف في السياق نفسه " إذًا أنا مثلكم، أرجو، بل أنا مستعجلة لرؤية ما يخبئه المستقبل لكل هؤلاء الناس الذين يقاسمونني حياتي منذ سنة من الآن"[3].

معنى هذا أن الروائية تكتب بالدرجة الأولى إلى جمهور معين هو الجمهور الذي يقاسمها مثل هذا التعلق بشخصيات الرواية وبما ستؤُول إليه مصائرها داخل العمل الروائي. ولا يعز على قارئ ديدرو في روايته " جاك القدري" تبين تقاسيم صورة القراء الذين توجَّه إليهم بعمله هذا وذلك من خلال مخطباته المتكررة لهم على امتداد الرواية، فهم قراء تَهُمُّهم معرفة الحقيقة وتَبَيُّن ما هو صحيح مما هو خاطئ، فيجب من أجل ذلك أن يتوافروا على القدر المناسب من الذكاء والفطنة لاستشفاف الحقيقة مما يروى ومن مضمون الخطابات المباشرة الموجهة إليهم في أضعاف العمل الروائي نفسه[4].

(1)- سارتر، ما الأدب، مرجع سابق، ص 70.

(2) - Louise tremblay D'essiambre, L'amour au temps d'une guerre, éd, France Loisirs Paris 2015/2016, P. 407.

(3) - Louise tremblay d'Essiambre,op.cit, p . 408.

(4)- Voir Denis Diderot Jacques le fataliste ENAG/ Editions, Alger. 1990, les pages suivantes à titre d'exemple pp, 37, 38, 105, 121.

لكن، عندما لا يكون جمهور الكاتب محددا بمثل هذا الوضوح داخل العمل نفسه فإنه يشكل له – مثلما ذكرنا – صورة في ذهنه ويكتب له من خلالها.

فإذا كانت العلاقة غير مباشرة بين المؤلف وجمهوره في الخطابات المكتوبة فإن هذه العلاقة تكون مباشرة بين المخاطِب ومخاطَبه (أو مخاطبيه) في الخطابات الشفوية.

إذا كانت طبيعة العلاقة بين المتواصلين في نمطي الخطاب المشار إليهما قد اتضحت بعض الاتضاح، فما هي مميزات أداة التواصل الرئيسة بين المخاطِب وجمهوره؟.

2 - اللغة وسيلةً ناجعةً لصناعة الخطاب بفضل:

أ. المواضعة والاستعمال:

تقدمت الإشارة إلى أن اللغة هي الجسر الرئيس الذي يصل بين المتخاطبين، على اعتبار أن المُخاطِب (كاتباً كان أم مُشافِهًا) يتوجه من باب أول إلى من تجمعهم به أداة تواصلٍ وهي اللغة في حالتنا. على أنه من المُحتمل أن يكون لخطابه جمهور آخر لم يضعه في حسابه، وذلك عندما ينقل نصه إلى لغة غير اللغة التي صيغ بها ابتداءً.

يقتضي منا التعرف على مميزات الآداة الرئيسة التي يتوسل بها المخاطِب لصناعة خطاب موجه إلى جمهور فعليٍّ أوْ افْتِرَاضِي أن نؤكد على جملة من الأشياء ذات علاقة بما وصفناه بالجسر الرئيس الذي يعقد العلاقة بين المتواصلين بوساطة الكلمة وهو اللغة التي قال عنها إدوارد سابير إنها " وسيلة التواصل بامتياز في كل مجتمع"[1].

إذا كانت اللغة على هذا النحو الذي ذكره سابير، وهي كذلك حقا، فما الذي يؤهلها لأداء هذه الوظيفة الحيوية في المجتمع أو في مجموعة اجتماعية

(1)- Edward Sapir cité par Roman Jakobson, in Essais de linguistique générale, les éditions de minuit, Paris 1973 p. 91.

معينة تستخدمها للتعبير عن أغراضها ولقضاء شؤونها اليومية حتى قبل أن نتحدث عن استعمالها في غير الخطابات الاجتماعية النفعية اليومية؟.

إن أهلية اللغة لتحقيق التواصل بين مستخدميها في المجتمع لا تتأتى لها كيفما اتفق، إنما تقوم هذه الأهلية على شروط قبلية لا بد من توافرها، وهي شروط تطرق لها منذ القديم المهتمون باللغة من لغويين ولسانيين وغيرهم.

وفي هذا السياق نرى القاضي عبد الجبار يجعل من الاتفاق أو المواضعة الشرط الأول لأي تفاهم يحصل عن طريق اللغة، يقول: " فلو لم يتواضعوا عليها لما صح في لغات أدلة تفهم بها الأغراض يقع بها التخاطب (...) كما لا بد في اللغات من تقدم المواضعة " [1]، ويضيف في موضع آخر: " إن الكلام إنما يحصل مفيدا بالمواضعة لا لأمر يرجع إلى جنسه ووجوده وسائر أحواله، لأن وقوع الفائدة به يتبع المواضعة والعلم بها يحصل بحصولها ويرتفع بارتفاعها" [2]. واعتبر فرديناند دو سوسور حديثا اللغة مجموعة من المواضعات الضرورية (Ensemble de conventions nécessaires) تتبناها الهيئة الاجتماعية لتمكين الفرد من استعمال ملكته اللغوية[3]»، أي في تواصله مع بقية أفراد هذه الهيئة الاجتماعية.

إن ما يُستفاد من كلام القاضي عبد الجبار ومن كلام سوسور كذلك هو أن حصول التخاطب لا يتحقق إلا بمشاركة المُخَاطِب مُخَاطَبِهِ (أو مُخَاطَبيه) في معرفته وضع اللغة التي يجري بها التخاطب بينهما، وهذه المعرفة المشتركة معرفة قبلية، أي إنها تسبق عملية التخاطب نفسها، لأنه كما جاء في شرح

(1)- القاضي أبو الحسن عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تح أمين الخولي، ط1، القاهرة، 1380 هـ 1960 م، ج 16، ص 309 - 310، وينظر عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 32.

(2)- القاضي أبو الحسن الجبار، المرجع السابق، ص 101 - 102 والخطاب والتخاطب، ص 32.

(3)- Ferdinand De Saussure, Cours de Linguistique générale, ENAG/ Editions, 2ème éd, Alger 1994, p . 23.

الكافية. " لا يحسن أن يخاطب بلسان من الألسنة إلا من سبق معرفته لذلك اللسان" [1] .

سوى إن هذه المعرفة المشتركة بأوضاع اللغة لا تعني البتة أن مستعملي لغة من اللغات والتي بها يصنعون الخطابات التي يتواصلون بها يعرفون ضرورة جميع أوضاع اللغة التي يتعاملون بها، فذلك أمر صعب تحقيقه بالنسبة لأي كان من أهل اللغة أنفسهم[2]*، فضلا عن تفاضلهم في تحصيلها، فالأرصدة اللغوية التي يمتلكها مستعملوها متفاوتة ويستحيل أن يحصل فيها التطابق حتى وإن كانت هذه اللغة هي لغة المنشإ بالنسبة إليهم وكان انتماؤهم إلى جماعة اجتماعية واحدة، فبالنسبة إلى العرب ولغتهم على سبيل المثال يقول الزجاجي:" ليس كل العرب يعرفون اللغة كلها غريبها و واضحها ومستعملها وشاذها، بل ذلك طبقات يتفاضلون فيها". [3]

إن هذه المسألة لا تخصُّ العرب والعربية، إنما هي ظاهرة تنسحب على كل الشعوب ولغاتهم، فقد أكد لسانيون محدثون أنه ليس من الصواب في شيء أن نتصور أن شركاء عملية التواصل يتحدثون بدقة نفس اللغة وإن انتموا إلى نفس المجموعة اللغوية، فكفاءاتهم اللغوية ليست متطابقة بل متباينة كمًّا ونوعًا، على الرغم مما يحصل بينهم من تفاهم عند تواصلهم بهذه اللغة [4].

لكن، قد يوحي كلامنا عن المواضعة التي هي قاسم مشترك بين المتخاطبين وأنها ضامنة للتفاهم الذي يصل بينهم أننا نسوي بينها وبين الاستعمال، أو أن مستخدمي اللغة سواء في الخطابات النفعية (التداولية) أو في غيرها من

(1)- ابن الحاجب، شرح الكافية ص 128، وينظر الخطاب والتخاطب ص 52.

(2)* هذا على الرغم من أن الرصيد اللغوي في أي لغة مهما كان امتداده وثراؤه فإنه محدود وغير مفتوح إلى ما لا نهاية بل هو قابل للإحصاء.

(3)- الزجاجي، الإيضاح ، مرجع سابق، ص 92 وينظر الخطاب والتخاطب، ص 52.

(4)- Voir Cathérine Kerbrat- Oricchioni l'Enonciation, op. cit pp 14-15 et Jasette Rey Debove, Le métalangage, Armand Colin, Paris 1997, p. 25.

الخطابات كالخطابات الأدبية مثلا يلتزمون بالدلالات الوضعية للغة التزاما صارما ولا يحيدون عنها كما قد يفهم من كلام القاضي عبد الجبار الذي نعود إلى التذكير به، وهو أن " الكلام إنما يحصل مفيدا بالمواضعة (...) لأن وقوع الفائدة به يتبع المواضعة والعلم به يحصل بحصولها ويرتفع بارتفاعها".

إن المواضعة أو المواطأة شيء والاستعمال شيء آخر، فعلى الرغم من ضرورة توافر المواضعة بين مستعملي اللغة الواحدة، فإن ذلك لا يعني مثلما ذكرنا التطابق الكامل بين الرصيد المفرداتي الذي يمتلكه منها كل واحد منهم، سوى إن ذلك لا يعني أيضا عدم وجود قواسم مشتركة بين الأرصدة التي يتوافرون عليها وإلا انتفى التفاهم بينهم مثلما ينتفي بين من يستخدمون أنظمة لغوية متباينة.

وإذا كنا قد جعلنا من المواضعة شرطا لحصول التوصل فليس معنى ذلك أن هذا التواصل يضمنه اللفظ بوصفه وحدة لغوية معزولة، لأن اللغة ليست قائمة من المفردات لكل منها معنى تدل عليه وفقط، فاللغة كما يقول سوسور نظام من الأنظمة العلامية[1]، وكونها نظاما يفيد أن التواصل لا يحدث بالألفاظ معزولا بعضها عن بعض، إنما تؤدى هذه الوظيفة الاتصالية عن طريق الاستعمال؛ استعمال الأرصدة التي يقدمها الوضع لمستعملها، لذلك يميز عبد القاهر الجرجاني بين واضع اللغة (وهي الجماعة) وواضع الكلام وهو المتكلم فالاعتبار كما يقول "ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام والمؤلف له"[2]. الذي يحترم في صناعة الكلام نظام اللغة التي يستعملها وقواعدها، بمعنى إنه لا يستعمل أوضاع اللغة في خطابه كيفما اتفق، إنما عليه أن يحترم قوانينها وإلا فسد كلامه أو خطابه وأخطأ تحقيق وظيفته الاتصالية، لذلك يقول :" (...) ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي

(1)- Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique générale, op.cit, P. 33.

(2)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة، ط3، 1992، ص 417، وينظر كلامه على واضع اللغة في الصفحتين: 29 و49.

يقتضيه " علم النحو " وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تُخِلُّ بشيء منها"[1]، وقال أيضا: " (...) ليس الغرض بنظم الكلم، أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل" [2].

معنى هذا أن المسألة الأخرى التي لها علاقة بالجسر الواصل بين منشئ الخطاب وجمهوره هي مسألة التأليف، أي التأليف بين العناصر اللغوية التي أقرتها المواضعة والتي يختارها من الرصيد اللغوي المتاح له وفقا للرسالة اللغوية التي سَيُضَمِّنُهَا مقاصده التبليغية، وعلى ضوء قواعد النظم أو التأليف التي يسمح بها نظام لغة الخطاب. فاللغة إذًا تضع في متناوله أصنافا مختلفة من العناصر منها الأسماء بأنواعها والأفعال والظروف وحروف الجر والإشاريات...إلخ، لكن في التأليف بين هذه العناصر لصناعة الجمل والفقرات التي سيتكون منها خطابه يرعى طرائق هذه اللغة وأساليبها في الصياغة، فهو يخضع في ذلك للقواعد الصرفية والنحوية والتركيبية الخاصة للغة التي يُخَاطِبُ بها جمهوره، وحينئذ يكون قد وَلَجَ مجال الاستعمال، وهو عملية مرتبطة به بوصفه منشئًا للخطاب، فهو المسؤول عنها، وفيها يخضع حقيقة، كما ألمحنا، لنحو اللغة من حيث هو مجموعة أصول تضبط السلامة اللغوية دَلاَلَةً وتركيبًا، سوى إن ذلك لا يمنعه من ابتداع تراكيب جديدة إذا توافرت لديه الأهلية لتحقيق ذلك، فيأتي " بصور مبتدعة من الكلام وبتراكيب ذات المحتوى اللفظي غير المسبوق فيها"[3]، لأن ما يجيزه النحو كما قال الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح وهو محق:" وإن كان كثيرا بالنسبة إلى التراكيب فإن أصوله محدودة العدد، لأنه يدخل في الوضع، وأوضاع اللغة ومقاييسها محدودة العدد بالضرورة"[4] معنى هذا الكلام أن لمنشئ الخطاب حرية في

(1)- عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص 81.

(2)- عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص 49 - 50.

(3)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 138 - 139.

(4)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 139.

استخدام أوضاع اللغة سواء أكانت افرادية أم تركيبية، دون أن يحول ذلك أيضا بينه وبين استعمال وضع من أوضاع اللغة كما هو لفظا ومعنى بأن يبقيه على أصله إذا ما اقتضى ذلك الخطاب ومقاصده التبليغية.

وما يجب التذكير به فيما يخص الاستعمال الذي له هو الآخر علاقة بما أسميناه الجسر الواصل بين المُخَاطِب ومُخَاطَبِه (أو مخاطبيه)، هو تحوُّل المعاني الوضعية عند الاستعمال إلى معانٍ خطابية، فالمعنى الوضعي للاستفهام مثلا هو الاستنباء والاستفسار، لكنه قد يتحول إلى معنى آخر في الخطاب كأن يكون اسْتِنْبَاءً أو استعلامًا في اللفظ ومعناهُ غير ذلك كما في قوله تعالى يخاطب أهل الكتاب ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنت تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ (البقرة: 44)، فتعالى الله علوًّا كبيرًا أن يستفهم عباده على سبيل الاستخبار والاستفسار، فهو يَعْلَمُ ما تكنه الصدور وما توسوس به الأنفس ولا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض، فالمعنى الذي أدَّاه الاستفهام في الآية هو ذم المقصودين بالخطاب وتوبيخهم وتنبيههم على عظمة خطئهم في حق أنفسهم وهو أمر جلل، وهذه المعاني تؤكدها القرينة اللفظية الواردة في الآية وهي "أفلا تعقلون" وهو استفهام آخر يفيد معنى الاستنكار الشديد لما يفعله هؤلاء الناس، فالأفعال المجانبة للعقل لا يمكن إلا أن تكون منكرة، مذمومة ومتعجبٌ من سلوك المقدم عليها.[1]

فالاستعمال يُحَرِّرُ مُنْشئ الخطاب من التمسك الصارم بالمواضعة، وهو ما ستكون له انعكاساته على الخطاب، سواء على مستوى صياغته أو على مستوى تلقيه، على الرغم مما سبق تأكيده من أن المواضعة شرط من شروط حصول التفاهم وأنه من دونها لا يحصل التواصل بين المتخاطبين لأن الأساس في تحول المعاني الوضعية إلى معانٍ خطابية في صُلب الخطاب هو المواضعة نفسها التي يقاس على أساسها التغيير الذي يحدث للمعاني عند الاستعمال،

(1)- يُنظر في تفسير هذه الآية ، ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، 1969، ج 1، ص: 85 - 86.

فالخبر مثلا يحتفظ بصيغته المعروفة في الاستعمال، لكنه بتظافر جملة من العوامل في الخطاب يحدث تَحَوُّلٌ في المضمون الوضعي لصيغته وهو الإعلام بأمر أو بشيء ما فيفيد معاني أخرى غير معناه الوضعي مثل التحسر أو النصح أو إظهار العجز وما إلى ذلك، وهي معانٍ خطابية يظهرها الاستعمال حسب مقتضى الرسالة التي يتضمنها الخطاب. ومثاله من القرآن الكريم ما أخبر به نوح ربه من رفض قومه ما دعاهم إليه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١...۝٢٠ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾ نوح: آ.5 21-. إن الله وهو علام الغيوب يعلم علمًا قبليا هذا الذي يخبره به نبيه نوح الذي يعلم هو أيضا أن ربه على بينة بما يرويه له من أخبار، معنى ذلك أن الخبر في هذه الحالة لا يفيد جديدا يجهله المخاطَب، أي إنه خالٍ من المضمون الإفادي الذي يراد منه إزالة شك أو جهل، فلو كان قصد نوح منه تحقيق هذه الغاية لكان مُحِيلاً على حدِّ تعبير عبد القاهر الجرجاني، لأن إخبار المخاطَب بما أحاط علمه به خارج عن الصواب [1]، وبناءً عليه يظهر أن الخبر في الخطاب القرآني في الآيات التي أثبتناها وُظف لإفادة معان أخرى وهي شكوى نوح إلى ربه مما لقيه من قومه من ازورار وشدة أعراض عما دعاهم إليه وعجزه عن ثنيهم عن غيهم وعن إصرارهم على البقاء على الكفر والشرك على الرغم مما صرفه من جهد في سبيل ذلك معتمدا الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى، ويتضمن هذا الخبر أيضا معنى التحسر والتذمر الشديدين اللذين غلبا على نفس نوح وهو

(1)- يُنظر، عبد القاهر الجرجاني المقتصد في شرح الإيضاح للفارسي، نقلا عن عبد الرحمن الاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 71.

يرى قومه يعرضون عن الدعوة التي جاءتهم ويديرون لها ظهورهم متخذين الغيّ بدلاً من الرشد سبيلاً في الحياة على هذا النحو نرى أن الخبر غادر في الآيات المذكورة معنى الإعلام والإنباء ليؤدي معاني أخرى، وهي معانٍ خطابية أظهرها الاستعمال حسب مقتضى الرسالة التي يتضمنها الخطاب.

إن مثل هذه الإمكانية التي تتيحها اللغة تفتح أمام صانع الخطاب المجال اسعًا للتعبير عن عدد كبير من المعاني، لأنه لو كان كل ملفوظ لغوي (énon-cé linguistique) يحيل على عملية تلفظية (énonciation) خاصة تماما لا تقبل أي تغيير، " فإن التواصل بوجه عام يغدو مستحيلاً بين البشر"[1]، لأن ذلك يقيد الدور الاستعمالي الخطابي للغة ويضيّق المجال على مستعمل اللغة، فلا يستطيع التعبير عن جميع أفكاره أو سيؤدي ذلك إلى أن تكون عناصر اللغة غير قابلة للحصر وستمتد إلى ما لا نهاية له، وإلى ما تعجز ذاكرة الإنسان عن استيعابه وتخزينه.

ب ـ الظلال الإيحائية للغة:

إن هذه الوسيلة التي تضعها اللغة بين يدي مستعملها، وهو منشئ الخطاب في حالتنا، لتشكيل خطابه حسب الأهداف التبليغية لرسالته اللغوية، ذات علاقة بظاهرة لغوية أعم. وقبل التوقف عند هذه الظاهرة التي تُعَدُّ وسيلة شديدة الفعالية لتمكين مستخدمي اللغة عامة من التعبير عن جميع الأفكار والمعاني التي يريدون الإفصاح عنها، وهي أفكار ومعانٍ مُتَجَدِّدَة ومتطورة مع الزمن وليست محصورة في عدد معين لا تتجاوزه، لذلك يقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح:" فلو دلّ كل لفظٍ في أصل وَضْعِهِ وفي الكلام على معين في جميع الأحوال، لتعذر التعبير عن أكثر المعاني المعروفة والتي لا يعرفها الناس وسوف تظهر على مَمَرّ الأيام"[2].

أقول قبل الوقوف على الظاهرة التي ألمحنا إليها، تجدر الإشارة إلى ظاهرة

---

(1)- Jean – René Ladmiral, Traduire ; Théorème pour la traduction, éd Galimard, Paris 1994, P. 141.

(2)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 139.

لغوية أخرى يجد فيها مستعمل اللغة، لاسيما في الخطابات الأدبية، وسيلة ناجعة لتبليغ مقاصده إلى متلقيه، ونعني بها ما يرافق اللفظ ، فضلا عن دلالته المباشرة المتواضع عليها من ظلال إيحائية تحف بمعناه المعجمي وهي ما يعتبره بلومفيلد(Bloomfield) قيما دلالية إضافية ترتبط بالدلالة الحقيقية للكلمة. (1)

وبخصوص النكهة الإيحائية التي تضيفها هذه الدلالات على الخطاب يقول: « [...] كل شكل من أشكال الخطاب له نكهته الإيحائية الخاصة بالنسبة إلى الجماعة اللغوية بأكملها"(2). فبإمكان منشئ الخطاب إذًا استثمار هذه الطاقة الإيحائية المشحونة بها الألفاظ في تبليغ مقاصده، فيكون لذلك وقعه الخاص على جمهوره، لأن مسألة الإيحاء هذه ذات طبيعة اجتماعية وثقافية، وبصفتها هذه يمكننا أن نعدها ضربًا آخر من المواضعة(3)*، ما دامت مرتبطة بثقافة أهل اللغة ونابعة من تجاربهم الاجتماعية الخاصة، لأنها تُكْتَسَبُ في أثناء اكتساب الإنسان اللغة داخل مجتمعه. وفي هذا المضمار يقول لادميرال يتحدث عن الظلال الإيحائية للغة : يجب أن نعيد لها طابعها الاجتماعي بأن نرى فيها " حدثا جماعيا يتعلق – بعبارات سوسورية– باللغة بدلاً من الكلام" (4)، فالأمر فيها مثلما يقول غاليسون(R. Galisson)، وكوست (D. Coste)، "لا يتعلق فقط بتنوعات فردية وانفعالية وإنما بثوابت على مستوى ما يمكن أن يطلق عليه استخدامات ثقافية"(5). فالإيحاء ليس

(1)-L. Bloomfield Cité par G.Mounin, in les problèmes théoriques de la Traduction, éd. Gallimard, paris, 1963, p. 145.

(2)- L. Bloomfield Cité par Jean-René Ladmiral, in Traduire : théoréme pour la Traduction, op. cit, p. 133.

(3)* وهذا لا يُلْغي البعد الفردي للظلال الإيحائية، يُنظر:Dictionnaire de rhétorique Michel Pougeoise, Armand Colin, Paris, 2004, p. 87

(4) - Jean – René Ladmiral, Traduire ; op. cit , p. 145.

(5)-Galisson.R et Coste. D, Cité par Ladmiral, op. cit, p. 145.

متعلقا بالكلام الفردي إنما باللغة من حيث هي مؤسسة اجتماعية، فكثير « من المتكلمين يمكنهم أن يتعارفوا من خلالها ويتواصلوا على أساس هذا الافتراض المسبق المشترك"[1]، لذلك فإن وورف (Worf) في تأكيده على الحمولة الثقافية لجملة من العناصر اللغوية يقول:" هناك وحدات لغوية الثقافة هي التي تحددها وبشدة" [2] وعليه فإنه " عندما ندرس الرصيد اللغوي للغة أجنبية، فإنه من السهل نسبيا تعلم دلالات الكلمات، لكن بالمقابل من الصعب بكثير التمكن من إدراك القيم الإيحائية التي لها علاقة شديدة بحساسية وتجارب متكلمي هذه اللغة. والإقامة لمدة طويلة في البلد الذي يتكلم هذه اللغة تمكن شيئا فشيئًا من اكتساب الإحساس بجميع أنواع الإيحاء"[3]، فورود كلمة "خنزير" مثلا في نص عربي ترافق دلالتها الوضعية التي تعني الحيوان المعروف جملة من الدلالات الإيحائية السلبية كالنجاسة والضعة والقبح والحقارة ورداءة الطبع وسوء الخلق، وما إليها، وهي إيحاءات لا تصاحب هذه الكلمة بالضرورة في جميع اللغات، إن لم نقل قد تحفها في بعضها إيحاءات إيجابية . وعلى سبيل المثال أيضا من الإيحاءات التي ترافق كلمة "ثعلب" في العربية المكر والدهاء بينما نجد هاتين الدلالتين الإيحائيتين منسوبتين إلى ابن آوى (Chacal) في إفريقيا وإلى الغراب في أمريكا الشمالية[4]، بينما الدلالة الإيحائية للغراب في العربية هي الشؤم وحدوث المفاجآت غير السارة التي تُنَغِّصُ الحياة على الإنسان وتملأ نفسه أَلَمًا وحُزْنًا، لذلك أضحى قوْلاً سائرًا قولهم: " أشأمُ من غراب وأفسق من غراب"[5].

إن مثل هذه الإيحاءات، إذا أحسن المخاطِبُ استثمارها، والتعامل معها، فإنها تُسْهِمُ إسهامًا كبيرًا في تشكيل البنية الدلالية للخطاب، بل

(1)- Jean – René Ladmiral, op. cit p. 146.

(2)- B. L Whorf, Cité par Mathieu Guidère, in Introduction à la Traductologie, De Beock, Bruxelles, Belgique, 2010, p. 142.

(3)- Jean- Claude Margot, Traduire sans trahir, la théorie de la traduction et son application aux textes bibliques, éd, L'Age de l'Homme, Lausanne / Suisse 1997, p. 118.

(4)- Voir , Jean- Claude Margot, op. cit, p 285.

(5)- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت (د. ت)، مادة «غرب».

وتُسْهِمُ أيضًا في تلقيه، أو لنَعُدْ إلى القول إنها وسيلة أخرى لربط الاتصال بين الجمهور والخطاب الذي يتوجه به إليه منشئه، على اعتبار أنها راسخة في ثقافة اللغة التي يتواصل بها المخاطِب مع مخاطبيه، أو بعبارة أخرى، إنها ظاهرة ثقافية لغوية يشارك فيها المخاطِب مخاطَبه (أو مخاطَبيه). ونعتقد أن رتشنباخ كان يومي إلى وظيفتها هذه عندما عدها " قيمًا تواصلية" (Valeurs communicatives)[1]، فبواسطتها يستحضر المتلقي دلالات غير الدلالات المباشرة لما يسمعه أو يقرؤه، على اعتبار أن الكلمة في هذه الحالة لا تدل على معنى وحيد لصيق بمرجعها وإنما تثير في ذهن مُتلقيها إيحاءات وانفعالات لا تحدثها في ذاته الدلالات المعجمية للغة.[2]

ج- إبهام أوضاع اللغة:

- قلنا فيما تقدم هناك ظاهرة لغوية يجد فيها المخَاطِبُ ومستعمل اللغة عموما سندا كبيرا لصناعة خطاباته التي يتواصل بها مع غيره، لأن ألفاظ اللغة خارج الاستعمال غير زمنية ومبهمة، وهي في هذه الحالة افتراضات[3]. هذه الظاهرة تنبه لها علماء النحو واللغة منذ القديم وتحدثوا عنها في أثناء تناولهم عملية التخاطب فأبانوا أن اللغة تضع بين يدي منشئ الخطاب (متكلما كان أم كاتبا) وسائل تمكنه من إيصال مقاصده إلى مخاطبه، ويعنون بذلك "أوضاع اللغة". وأهم ما يميز هذه الأوضاع هو " الإبهام" قال الرضي في " شرح الشافية " يتحدث عن هذه الظاهرة المميزة للغة البشرية، " لا يريد (أي ابن الحاجب) به (أي الإبهام) أن الواضع قصد في حال وضعه واحدا معينا، إذْ لو أراد ذلك لم يدخل في حده إلا الأعلام، إذ المضمرات والمبهمات

(1)- Reichenbach cité par Ladmiral in Traduire, Théorèmes pour la traduction, op.cit, p 134.

(2)- ينظر، شابحة حمرون، «نقد ترجمة الجملتين الاسمية والفعلية، من العربية إلى الفرنسية في رواية عبد الحميد بن هدوقة «ريح الجنوب»، ترجمة مارسيل بوا، دراسة نماذج، أطروحة دكتوراه في الترجمة ، جامعة الجزائر، 2007 /2008، ص 15.

(3) - Voir, Danica Seles kovitche, in interpreter pour traduire, p . 183.

وذو اللام والمضاف إلى أحدها تصلح لكل معين قصده المستعمل فالمعنى: ما وضع ليستعمل في واحد معين سواء كان ذلك الواحد مقصود الواضع كما في الأعلام أو كما في غيرها" [1].

والمقصود من الإبهام عند هؤلاء القدماء ليس الغموض، إنما المقصود منه هو عدم التعيين كما أشار إلى ذلك الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح في أكثر من موضع من كتابه "الخطاب والتخاطب"، وسيبويه يستعمل هذا المصطلح في مقابل الاختصاص، من ذلك قوله في أثناء حديثه عن التمييز والمضاف إليه: " لي عشرون" فقد أبهمت الأنواع، فإذا قلت: " درهما" فقد اختصصت... فإذا قلت: " ويحه" فقد تعجبت وأبهمت من أي أمور الرجل تعجبت... فإذا قلت: فارسًا فقد اختصصت ولم تبهم"[2] .

أن تكون أوضاع اللغة غير دالة في أصل وضعها على شيء محدد يمنح مستعمل اللغة فرصا واسعة للتعبير عن مقاصده، وذلك حسب ما تقتضيه الرسالة اللغوية التي يسعى لإيصالها إلى مخاطَبِه(أو مُخاطَبيه)، بمعنى إن استعماله هذه الأوضاع المبهمة غير الدالة على شيء معين عندما تكون خارج الخطاب يقتضي منه أن يُكَيِّفَهَا حسبما تستوجبه طرائق رفع الإبهام عن أوضاع اللغة حال استعمالها. وليس المراد من هذا إخضاعها فقط لما تتطلبه السلامة النحوية، إنما أيضا لما يحقق للخطاب النجاعة في تبليغ المقاصد وهو ما يخضع لكفاءة منشئة في الاهتداء إلى أضرب من التوليف بين العناصر التي تضعها اللغة وقواعدها بين يديه وفقا لما يريد التعبير عنه من الأغراض كما يظهر من ردّ عبد القاهر الجرجاني على أولئك الذين يحصرون وظيفة النحو في معرفة سليم الكلام من سقيمه، فَمِمَّا قاله في ردّه هذا يتحدث عن

(1)- الرضي، شرح الشافية نقلا عن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 91.

(2)- سيبويه، الكتاب 1/288 و 299 نقلًا عن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 77.

الصفة:" وإذا نظرتم في الصفة مثلا فعرفتم أنها تتبع الموصوف، وأن مثالها قولك:" جاءني رجل " ظريف" و " مررت بزيد الظريف"، هل ظننتم أن وراء ذلك علمًا وأن ههنا صفة تُخَصِّصُ وصفة توضِّح وتُبَيِّن وأن فائدة التخصيص غير فائدة التوضيح كما أن فائدة الشيّاع غير فائدة الإبهام وأن من الصفة صفة لا يكون فيها تخصيص ولا توضيح ولكن يُؤتَى بها مؤكدة: كقوله " أمس الدابر" وكقوله تعالى:" فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة" (الحاقة: 13)، وصفة يراد بها المدح والثناء كالصفات الجارية على اسم الله تعالى جدُّه ؟ وهل عرفت الفرق بين الصفة والخبر وبين كل واحد منهما وبين الحال؟ وهل عرفتم أن هذه الثلاثة تتفق في أن كافتها لثبوت المعنى للشيء ثم تختلف في كيفية ذلك الثبوت؟"[1].

أوردنا كلام عبد القاهر على طوله لنؤكد من خلاله ما يعود إلى كَفَاءَةِ منشئ الخطاب في استغلال أوضاع اللغة وقواعدها النحوية والصرفية والتركيبية في بناء خطابه على النحو الذي يضمن به النجاعة في تحقيق الأهداف التبليغية المرسومة له، وعليه فإن نسج الخطابات خاضع لهذه الكفاءة التي يتوافر عليها المخاطِبُ لاستعمال أوضاع اللغة ونظامها الاستعمال المفضي إلى الغاية التي يسعى لبلوغها من خلال خطابه. وإلى هذه الكفاءة يعود الفضل فيما يفضُلُ فيه " النظمُ النظمَ والتأليفُ التأليفَ والنسجُ النسجَ والصياغةُ الصياغةَ، ثم يَعْظُمُ الفضلُ وتكثر المزية حتى يفوق الشيء نظيرَه والمجانسَ له درجات كثيرة، وحتى تتفاوت القِيمُ التفاوت الشديد، كذلك يفضل بعضُ الكلام بعضا ويتقدم منه الشيءُ الشيءَ ثم يزدادُ فضله ذلك ويترقى منزلةً فوق منزلة ويعلو مرقبًا بعد مرقبٍ ويُسْتأنفُ له غاية بعد غاية حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع وتَحْسَرُ الظنون وتسقط القوى وتستوي الأقدام في العجز"[2].

(1)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص 30 - 31.

(2)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 35.

إذا كانت العبارة الأخيرة في كلام عبد القاهر هذا تنطبق أكثر ما تنطبق على الخطاب القرآني الذي بلغ الغاية التي لا يُدرِكُها جهدُ إنسان مهما ارتقت كفاءته في نسج الكلام، فإن النص في مجمله يُومِئُ فيما يخصُّ البشر إلى التفاوت الذي يحصل في تأليف خطاباتهم التأليف الأكثر قدرة على تحقيق أهدافهم التواصلية بما تتيحه لهم كفاءاتهم من إمكانات في توظيف ما توفره لهم اللغة من وسائل لأن استغلال طاقات اللغة في صناعة الخطابات لا ينحصر في حالة واحدة لا غير وإنما يختلف ويتعدد ويتنوع بحسب مستعملي اللغة وما أوتوه من قدرات في التأليف وتصريف أساليب الكلام التصريف الذي يقتضيه تحقيق المقاصد وبلوغ الغايات؛ متجاوزين في نسج خطاباتهم مستوى السلامة بالمفهوم النحوي التقعيدي الذي لا يتسم فيه الخطاب بفضيلة أو مزية ما، إنما يحصل له ذلك عندما يتفق لمنشئه أن "يخلق" بوساطة ما تتيحه له اللغة من وسائل تراكيب وهيئات وتآليف ذات أصالة بأن يعرف على وجه الدقة المواضع التي يضع فيها أوضاعها من خطابه وكيف يَضُمُّ بعضها إلى بعض ويستعمل بعضها مع بعض استعمالا يتخطى فيه الدارج المألوف إلى ما يُضفي على خطابه من المزايا ما يؤهله لبلوغ الأغراض التي أنشئ من أجلها، فكما يقول عبد القاهر: [....] ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تَؤمُّ" [1] ، وقوله أيضا "[...] لا فضيلة حتى ترى في الأمر مصنعاً، وحتى تجد إلى التخير سبيلاً وحتى تكون قد استدركت صوابا"[2] والبلوغ بالخطاب إلى مثل هذا المستوى من الإحكام والصناعة اعتمادا على وسائل متاحة لأهل اللغة جميعا يحوج ليس فقط لمعرفة أوضاع اللغة وقواعد نظامها التي تضمن السلامة النحوية للخطاب وإنما يتطلب من منشئه فوق ذلك حسب عبارات عبد القاهر قوة

(1)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 87.

(2)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 98.

ذهن وفكر لطيف وفهم ثاقب، [1] وهي مؤهلات ذاتية تضفي على خطابه لمسته الخاصة التي تميزه عمَّا سواه من خطابات من جنسه صيغت بنفس اللغة.

إن الأوضاع المبهمة من حيث هي وسائل تتيح لمستعملها التعبير عن المقاصد التي يروم إيصالها إلى مخاطَبِه (أو مخاطبيه) تتطلب العلم بكيفية رفع الإبهام عنها عند انخراطها في نسيج الخطاب لتغدو مكونا من مكوناته، وهذا يقتضي منه ابتداءً المعرفة بأصنافها كيما يتعامل معها عند استعمالها وفق ما يتطلبه الصنف الذي إليه انتماؤها، فلا يعامل ما هو مبهم منها إبهاما مطلقا مما هو غير مقيد بجنس معاملته لما هو مبهم في جنسه: فالنوع الأول من حيث اتصافه بشدة الإبهام فإن أوضاعه لا تدل على ذوات أو أحداث، مثلما هي حال الضمائر وأسماء الإشارة على سبيل المثال، أما النوع الثاني فيخص اسم الجنس أو الاسم المختص والمقصود به " اللازم لما وُضِعَ له، مثل زيد وعمرو ورجل وفرس"[2] ورفع الإبهام عن هذين الصنفين حال استعمالهما في واقع الخطاب لا يحصل بطريقة واحدة فبالنسبة إلى النوع الأول من الأوضاع المبهمة التي منها كما ذكرنا الضمائر وأسماء الإشارة وغيرها مما لا يدل على شيء معين في الوضع كالظروف وأسماء الزمان والمكان مثلا، فإن محتواها يتعين بالقرائن المقالية والحالية حسب طبيعة هذه المبهمات، يقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح يتحدث عن توظيف هذه المبهمات في الخطاب وتحويلها إلى أدلة ذات محتوى معين:" وهي مبهمة بمعنى أنها لا تدل على شيء معين في الوضع وبالتالي في الكلام المجرد من القرائن، فوجود هذه الدلائل المبهمة لا ينفصل أبدا عن القرائن وهي تمكين وضع اللغة لمستعملها من أن يرمز في كلامه إلى نفسه وإلى المُخاطَب والمُحَدَّثِ عنه والزمان الذي هو فيه أو ما قبله أو ما بعده وللمكان الذي هو فيه كمتكلم وبعلامات تقوم مقام الأسماء وهي الضمائر والظروف وغير ذلك... والجدير بالملاحظة بالنسبة

(1)- ينظر عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص 98.

(2)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 92.

إلى عملهم هذا (أي النحاة العرب) هو توضيحهم أن الأسماء المبهمة يتحصل معناها ويتعين محتواها بالحال الخطابية بحضور المتخاطبين وتقدم الذكر على حد تعبيرهم وهم أول من قال بأن الزمان الذي تدل عليه الظروف المبهمة كالآن واليوم وأمس وغدوة أو غدا هو زمان المتكلم فهو بذلك مرجع الخطاب الزماني، فاليوم هو اليوم الذي يتكلم فيه وأمس اليوم قبل يومه وهكذا"[1].

إن هذه الأوضاع المبهمة بالمفهوم الذي ألمحنا إليه للإبهام والتي يتحدد معناها ويتعين في متن الخطاب يجب أن يرعى منشئ الخطاب في توظيفها سياقات استخدامها والقرائن القمينة برفع الإبهام عنها كيما تُسهم مع بقية مكونات الخطاب في التعبير عما يتضمنه من مقاصد: فهو مثلا لا يستعمل ضمير الغائب " هو" أو "هي" في خطابه إلا إذا كان قد تقدم له كلام عن الشخص الذي يعود عليه هذا الضمير[2]، ففي هذه الحالة يحل الضمير محل الاسم الذي تقدم ذكره، وبناء عليه يتعين محتواه الدلالي فيتجلى الغرض منه، وكل ذلك حسب ما يقتضيه السياق وغرض المتكلم (أو الكاتب) من إيثار استعمال الضمير في هذه الحالة بدلا من تكرار الاسم الذي جاء هذا الضمير عوضا عنه، على اعتبار أن " كل كلام ينظر إليه من حيث إفادته للأغراض التي يختارلها المتكلم الدلائل بالصيغ المناسبة لها". [3]

إن كون هذا النوع من الأوضاع المبهمة خاليا من أي محتوى دلالي خارج الاستعمال[4]، يتيح لمنشِئ الخطاب هامشا معتبرا من الحرية في التعامل معها، فالضمير "أنت" ليس له من حيث هو وضع مرجع محدد، من ثم فإن المخاطِب (متكلما كان أم كاتبا)، يمكنه أن يحيل من خلاله على أي مخاطب ذكر، ففي

(1)-عبد الرحمن الحاج صالح، المرجع السابق، ص 226 - 227.

(2) - Voir Jean – Michel Gouvard, La pragmatique Outils pour l'analyse littéraire, Armand Colin, Paris, 1998, pp 12-13.

(3)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 140.

(4)- Voir Christian Baylon et Xavier Mignot, Sémantique du langage, éd Nathan, Paris 1995, pp 78-79.

الآية 116 من سورة المائدة على سبيل المثال ورد هذا الضمير مرتين بمرجعين مختلفين، قال المولى تعالى﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ في الاستخدام الأول للضمير " أنتَ" في الآية كان المرجع هو المسيح عليه السلام، أما في الاستخدام الثاني فإن مرجعه هو الله جلت قدرته.

إن مثل هذا التنوع للمحتوى الدلالي للضمائر سواء أكانت للمتكلم والمتكلمين أم للمُخاطَب والمُخاطَبين أو للغائب وللغائبين كما هو ذائع في الخطابات ينسحب أيضا على أسماء الإشارة وعلى الظروف المبهمة ، والأمثلة عنها كثيرة جدا في الخطاب القرآني وفي الخطابات الأخرى، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾الأنبياء: 106، مرجع اسم الإشارة"هذا " مذكور في الآية التي قبلها؛ وهو ما ورد في الزبور مما وَعَدَ به الله الذين يعبدونه ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾الأنبياء: 105.

وإذا جئنا إلى الآية 191 من سورة آل عمران وجدنا مرجع اسم الإشارة "هذا " هو السماوات والأرض: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ من البين أن اسم الإشارة في الحالتين اللتين استشهدنا بهما تحدد محتواه الدلالي من خلال السياق الذي ورد فيه وما صاحبه من قرائن مقالية، فقد اكتسب في كل حالة من الحالتين محتوى دلاليا معينا حسب الغرض من استخدامه وهذا ينسحب على بقية أسماء الإشارة مثل " تلك" التي نراها هي الأخرى تأخذ في كل استعمال في الآيتين الآتيتين محتوى دلاليا معينا، قال تعالى يخاطب نبيه موسى عليه السلام : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾طه: 17، إن

المحتوى الدلالي لـ "تلك " في الآية تحدد من خلال قرينة مقالية هي اللفظة "يمينك" التي فهم موسى من خلالها أن الأمر يتعلق بما يحمله في يمناه، كما وضحته الآية التي تلتها: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾طه: 18، وهذا الاسم الإشاري نفسه نراه يتعين بمحتوى دلالي مغاير في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾البقرة: 11. تدل "تلك" هنا على مزاعم أهل الكتاب التي جاءت الآية لتفندها، فإذا كان محتواها الدلالي ماديا في الآية الأولى فإن محتواها هنا محتوى معنوي، والأمثلة على تعين محتوى هذه الإشاريات المبهمة داخل الخطاب وداخل الخطاب فقط كثيرة سواء في القرآن الكريم أو في الخطابات الأدبية، ويصدق ذلك على الأسماء الموصولة أيضا مثل :" الذي" و "التي" و "الذين" وغيرها، فإنها لا تدل على شيء معين في الوضع هي الأخرى. إن كون هذه الأوضاع على النحو الذي حاولنا بيانه يُمَكِّن منشئ الخطاب كما ذكرنا من توظيفها حسب أهدافه التبليغية ووفقا لما تقتضيه بنية الخطاب، وهو ما تتيحه له أيضا طائفة من ظروف الزمان والمكان التي يتعين مدلولها من خلال مستعملها: زمانه ومكانه كما هي الحال في المقطع الآتي من رواية عبد الحميد بن هدوقة " ريح الجنوب" على سبيل المثال: " ويلاحظ رابح عابد بن القاضي خارجًا من داره متجهًا نحو مصلاه، فقال مخاطبا إياه في نفسه: " صل ما شئت، فالغنم لن أسرح بها اليوم ولا بعد اليوم" [1].

إن ظرف الزمان" اليوم" في هذا الحوار النفسي لرابح الراعي مرجعه الزمان الذي تتحدث فيه الشخصية الروائية، وهو زمنٌ محدَّدٌ في الخطاب، أما خارجه فان الظرف" يوم" لا يدل على" يوم" معين، والأمر نفسه ينطبق على

(1)- عبد الحميد بن هدوقة، « ريح الجنوب» (رواية) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970، ص 110.

عدد من ظروف الزمان والمكان. فالظرف "هنا" مثلا خارج نسيج الخطاب ليس له مضمون محدد؛ فهو يصلح من حيث هو وضع للدلالة على أي مكان. وإذا وظف في الخطاب فإن دلالته تتحدد بالنسبة إلى المخاطِبِ والمُخَاطَبِ ، كما في المقطع الآتي من الرواية المذكورةآنفًا :" [...] فقال الشيخ:

" إن الناس هنا منذ الاستقلال لم يعد يروقهم أي عمل، كل واحد صار ينتظر أن يُمْنَحَ شهرية مقابل ما عمله أو لم يعمله أثناء الثورة "[1].

إن لُجُوءَ منشئ الخطاب إلى استعمال الظرف بدلاً من ذكر المكان الذي يحيل عليه يبرره في هذه الحالة كون الشخصية الروائية تتحدث عن مكان معروف لدى الشخصية التي تحاورها بحكم أن المكان الذي تتحدثان عنه هو المكان الذي يجمعهما أثناء تحاورهما.

أما بالنسبة إلى القارئ فإن الإبهام يرتفع عن هذا الظرف ويتعين له محتواه، لأن الكاتب سبق له التعرض للمكان الذي يحيل عليه وهو القرية التي تجري فيها أحداث الرواية، من ذلك قول السارد في مفتتح الفصل الثاني من الرواية " أصبحت القرية نشيطة حافلة بالرغم من الحر، تستعد لتحيا يومًا قلما شهدت مثله"[2].

إن ظرف المكان "هنا" سمح للكاتب أن يحيل من خلاله على مسرح الأحداث (القرية) من دون أن يلتبس الأمر على القارئ، بهذه الكيفية وحسب ما يقتضيه الخطاب تخرج مثل هذه الظروف من اللاتعيين إلى التعيين، فتؤدي الوظيفة التي حددها لها منشئ الخطاب وفقا للأغراض التبليغية التي توجهه في اختيار الأوضاع المناسبة لإنجازها. فاستعماله " هنا" مثلاً ليس كاستعماله "هناك"، على اعتبار أن "هنا" تُحيل على المكان الذي يتموقع فيه المتحدث أما "هناك" فتحيل على مكان لا يتواجد فيه أثناء حديثه، وهكذا يكون الحال مع ظروف أخرى مثل " أمس" الذي يستعمله في خطابه للإحالة على اليوم

(1)- المرجع السابق، ص . 44.

(2)- عبد الحميد بن هدوقة، المرجع السابق، ص . 41.

الذي يسبق اليوم الذي يتحدث فيه وقد يستعمله للإحالة على ما يسبقه مطلقا، والقرائن التي ترافقه في الخطاب هي التي تحدد محتواه الدلالي، وهو ما يحدث كذلك مع ظرف الزمان " غدا" الذي يحيل هو الآخر حسب القرائن التي يحيطه بها منشئ الخطاب عل اليوم الذي يتلو اليوم الذي يجري فيه الكلام مباشرة، وقد يدل على أي يوم يعقبه، ففي قوله جلَّ جلاله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ءَأُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾القمر: 23 - 26. إن سياق الخطاب يُبَيِّنُ أن الظرف "غدًا" في هذه الحالة لا يدل على اليوم الذي يتلو مباشرة اليوم الذي يُخَاطَبُ فيه قوم ثمود، وإنما مدلوله هو يوم الحساب، وقرينته قوله تعالى في الآية الأولى من السورة: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾﴾القمر: 01، وقد يحمل هذا الظرف نفسه دلالة أخرى، فيدل على اليوم الذي يلي اليوم الذي يتكلم فيه مُسْتَخْدِمه في الخطاب كما في المقطع الحواري الآتي من نص روائي:

" - هل يجب غلق الباب بإحكام ؟

أعتقد أن ذلك حسن !وبَلِّغْ خاصة ألا يسمح بالدخول غدا لأي شخص قبل منتصف النهار".[1]

وَفَّر الكاتب في هذا السياق قرينة لظرف الزمان " غدًا" رفعت عنه الإبهام ومنحت له مدلولاً محددًا وهو اليوم الذي يعقب اليوم الذي تتحادث فيه الشخصيتان، خلافا لما دلَّ عليه في المثال الذي تقدمه، إذ كان مدلوله كما رأينا اليوم الذي يجمع فيه المولى تعالى عباده لمحاسبتهم على أفعالهم ، وهو يوم بعيد جدًا – حسب تقديرنا الإنساني للزمن – عن اليوم الذي يجري فيه الخطاب.

(1)- Alexandre Dumas fils, La dame aux Camélias (Roman), librairie générale française, Paris 1993. P. 143.

هكذا يبدو واضحا أن مثل هذه الأدلة المهمة تمكن منشئ الخطاب من أن يستعملها عوضا عن أدلة أخرى في صناعة خطابه كلما اقتضى منه الأمر ذلك، فأضحت بالنسبة إليه دلائل على دلائل حسب عبارة الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح [1]، بعد أن كانت في الوضع وحدات لا تحمل دلالة معينة.

إذا كانت الأوضع المهمة المار ذكرها تتيح لناسج الخطاب استغلالها على النحو الذي حاولنا إلقاء الضوء عليه، فإن هناك أوضاعا مهمة أخرى يلجأ إليها لتأدية وظائف أخرى تتطلبها عملية التواصل حسب الغاية التي يرسمها لخطابه، وفي هذا السياق يجب التذكير ابتداءً أن في اللغة ما لا يحتاج إلى علامة زائدة تدخل عليه لتعيينه، لما يتوافر عليه من استقلالية في ذلك، وهذه هي حال اسم العلم، فالعلم " معرفة بنفسه لا بشيء دخل عليه أو فيما بعده "[2]وفي توضيح ما يتميز به اسم العلم عن بقية أوضاع اللغة يقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح:" فكل اسم علم يطلقه الناس على فرد معين بالضرورة، فإما أن يرتجل وإما أن يكون أصله من مجموعة الأعلام التي تعارف عليها الناطقون بلغة من اللغات، ولهذا لم يكن هذا العلم بعد وقبل التسمية مخصصا لمعين لأنه من عرف المجتمع الخاص بالأعلام فينتقل إلى المسمى به هو الشخص المعين فإطلاقه على فرد معين يعتبر ذلك النحاة بأنه صار معرفة بالوضع الخاص... فليس واضع اللغة (المتواضعون عليها) هو الذي يخصص العلم الخاص لمعين، لأنه لا وضع في أي لغة كانت إلا لغير معين، ولأن تسمية الأشخاص أخص من الوضع، كما قال الخليل: [زيد] جعلوه سمي بذلك خاصًا ". إلا أن النحاة قالوا بأن :" العلم المعرفة بالوضع" وهو أنك تسمي الرجل باللفظة التي هي زيد فيعرف بها وتصير علامة له".[3]

(1)- ينظر كتابه، الخطاب والتخاطب، ص. 255.

(2)- سيبويه، الكتاب، قلا عن عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص. 83.

(3)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 83 - 84.

يترتب على هذا الذي يتميز به "العَلَمُ"عما سواه من عناصر اللغة أن منشئ الخطاب متكلمًا كان أم كاتبا لا يحتاج لأن يوفر له، ليضحي معروفًا لدى مخاطَبِه، أَضْرُبَ القرائنِ التي يُحوجُهُ إليها تعامله في خطابه مع بقية أوضاع اللغة، فمع أسماء الأعلام لا يحتاج المتلقي في معرفتها للعودة ضرورة إلى حال الخطاب ولا إلى تقدم الذكر، إنما تغنيه عن ذلك معرفته السابقة لها.[1] إن هذه الخاصية التي يتفرد بها اسم " العلم" هي إذًا من الإمكانات المهمة التي توفرها اللغة لمستخدميها لصناعة خطاباتهم. سوى إن هناك مسألة فيما يخص التعامل مع اسم العلم لا بد من الإشارة إليها لدفع اللبس عما قلناه عن تفرده دون أوضاع اللغة الأخرى بالاستقلالية في التعيين. تتعلق هذه المسألة بالحالات التي تدخل فيها العِدةُ عليه، أي بالمناسبات التي يُؤتَى به مثنى أو جمعًا، قال سيبويه:" فإن قلت هذان زيدان منطلقان ... لم يكن هذا الكلام إلا نكرة من قبل أنك جعلته من أمة كل واحد منهما زيد... وليس واحد منهما أولى به من الآخر"[2] . ففي هكذا حالات يتعامل منشئ الخطاب مع العلم تعامله مع النكرة. فإذا أحوجه غرض من أغراض التداول إلى تعريفه مع احتفاظه بالعدة اقتضى منه ذلك إلحاق أداة التعريف به مثلما يصنع عندما يحتاج في موضع من مواضع الخطاب إلى تعريف النكرة لغاية تبليغة معينة، فيحق له في ضوء ذلك استخدام مثل التعابير الآتية:" غادر المحمدان القرية عند الفجر " و " أقبل العمرون على المدينة وأهلها يترقبون جديد الأخبار، فألقوا عليهم البشرى" و " بينما كان زيدا السفينة يتبادلان أطراف الحديث في هدوء بال مُسْلِسِين لها القياد، إذا بعاصفة هوجاء تأخذها في كل اتجاه " و " مرَّ وقت طويل على العليين وهما يتناقشان في أمر تسريحهما من العمل" إلخ.

(1)- ينظر المرجع السابق، ص 84.

(2)- سيبويه، الكتاب، نقلا عن عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 85.

إن إمكانية المجيء بالعلم نكرة وما يوفره نحو اللغة من طرائق لتعريفه في هذه الحالة يعد في حد ذاته مما تقدمه اللغة لمنشئ الخطاب من وسائل لبناء خطابه على النحو الذي يتوافق مع ما يسعى لإيصاله إلى المتلقين المقصودين به.

هناك، كما تقدمت الإشارة، أوضاع مبهمة غير التي مر ذكرها تتيحها اللغة لصانع الخطاب لتأدية وظائف أخرى تتطلبها عملية التواصل، منها على سبيل المثال لا الحصر: كل ، وبعض، ومثل، وجميع، وغيرها من أوضاع اللغة مما لا يختص قبل الاستعمال بما هو معين، شيئا كان أم ذاتا. فهذه الأوضاع تتيح هي الأخرى لصانع الخطاب أضربا من الاستعمال حسب ما تمليه عملية التواصل باللغة. يمكننا أن نمثل لهذا الصنف من الأوضاع باستعمالات في القرآن الكريم وفي بعض النصوص الأبية. قال تعالى في كلامه عما ينتظر الظالمين يوم القيامة من عذاب لا يصرف عنهم ولو ملكوا خيرات الأرض كلها وقدموها ليفتدوا بها أنفسهم من هذا المصير :﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾ الزمر : 47 - 48. إن «مثل» في ما أقره الله عزَّ وجلَّ في حقّ الظالمين في خطابه لها مضمون دلالي معين، يتمثل في كلّ ما يوجد على وجه البسطة من خيرات أنعم الله بها على عباده.

إن استعمالها بهذه الكيفية خلصها من الفراغ الدلال الذي كان يميزها وهي وضع، أي قبل أن تندرج في الخطاب لتصبح وحدة من الوحدات المكونة لنسيجه. وهذه الوحدة نفسها نراها في مواضع أخرى من القرآن الكريم، تكتسي مضامين دلالية غير المضمون الدلالي الذي امتلأت به في الموضع الذي استشهدنا به. ففي التعرض لمن أنكر من قوم نوح عليه السلام نبوته ينقل لنا القرآن قولهم: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي

﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ المؤمنون: 33 - 34، ففي الموضعين من الآيتين امتلأت الوحدة «مثل» بمضمون دلالي غير المضمون الدلالي الذي رأيناه من قبل، فهي هنا تُحيل على مجموعة من البشر يعيشون في زمن ومكانٍ محدّدين ويحملون معتقدات معينة ولهم موقف معين من الرسول الذي بُعث إليهم لهدايتهم كي يقلعوا عمَّا هم فيه من ضلال، وهي في سياقها هذا تشمل الذُكران كما الإناث من الأناسي ممن بلغ سن التكليف على اختلاف أسمائهم وأشكالهم وألوانهم وتباين أعمارهم. وقد يُضيّق مستعملها في السياقات الأخرى من دائرتها الدلالية حسبما يقتضيه خطابه فيحدّدُ مضمونها حينئذٍ بمفرد، سواء أكان هذا المفرد شيئًا ماديا أم معنويا، وسواء أكان جماداً أم كائنا حيًّا على النحو الذي استخدمه فيه عبد الحميد بن هدوقة في أثناء محاورة العجوز رحمة بطلة الرواية (نفيسة)، فقد قالت تخاطبها: «... الرجال هنا كالوحوش يلتهمونك بأعينهم إن رَأُوك، فهم لا يرون مثلك في بيوتهم ولا في غدوهم ورواحهم» [1].

مَكَّنت الوحدة اللغوية «مثل» الكاتب في هذا الاستخدام من استرجاع جميع ما يتعلق بشخصية نفيسة من سمات مادية ومعنوية تعرضت لها الرواية من قبل، فمضمونها الدلالي يحيل على هذه الفتاة الجميلة المثقفة التي تطبَّعت بطوابع المدينة وأضحت لها نظرة للحياة مخالفة لنظرة أهل القرية التي أصبحت تنتسب إليها بالبدن ليس غير، أما أفكارها فغير أفكار أهلها، وقناعاتها وتطلعاتها غير قناعاتهم وتطلعاتهم، فهي تختلف عنهم في كل شيءٍ حتى في لباسها. وهذه كلها دلالات تلتقي في هذه الوحدة التي استخدمتها المتحدثة في المقطع المذكور من الخطاب للإحالة على المتحدث إليها، ومن خلال ذلك يكون المؤلف قد ذكَّر قراءه بما سبق للخطاب رَصْدَهُ من ملامح

(1) - عبد الحميد بن هدوقة، «ريح الجنوب»، مرجع سابق، ص.38.

ومواصفات فارقة لهذه الشخصية وبذلك تكون الوحدة اللغوية «مثل» قد غادرت في سياق استعمالها إبهامها لتحيل على شخصية مفردة أنثى تحمل اسماً خاصا وذات نسب معين وأوصاف مادية ومعنوية يشكل مجموعها هويتها التي تجعل منها ذاتا متميزة عن بقية أفراد قريتها. معنى هذا أن ما امتلأت به هذه الوحدة المبهمة في أضعاف الجزء الذي أثبتناه من الحوار غير ما امتلأت به في سياق الآيتين القرآنيتين اللتين وقفنا عندهما.

إن مثل هذه الإمكانات التي تتيحها «مثل» لِمُنشِئ الخطاب لصياغة خطابه وفق ما يناسب الرسالة التي يروم إيصالها إلى مُخاطَبيه تُتيحُهُ له أيضا الأوضاع المبهمة التي من صنفها، ونعني بها تلك التي سبق ذكرها وهي: «كل وبعض وجميع وغير»، ونكتفي بالتمثيل إضافة إلى ما قدمناه عن «مثل» بالوحدة المبهمة» بعض ، التي كأخواتها لا تدل على معين إلا عندما تغدو عنصرا في بنية الخطاب كما في قوله تعالى ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ غافر: 77. إن «بعض» في سياق استعمالها في هذه الآية ذات مضمون دلالي غيبي، لأن ما يعد به الله عزَّ وجل الذين يجادلون في آياته ويكذبون بما أُرسلَ إليهم هو العذاب يوم القيامة. ما يوضح هذا المضمون الغيبي الذي تحمله «بعض» في هذا الاستعمال هو قوله تعالى قبل ذلك في السورة نفسها: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾ غافر: 70 - 72، وهو المعنى الذي توصله هذه الوحدة إلى المخاطَب في الآية وهو رسولٌ وإلى المخاطبين بها عامة وهم مجموع البشر على سبيل الاعتبار.

وقد اكتسبت هذه الوحدة نفسها في القرآن مضامين دلالية غير ما رأيناه في الآية السابقة، من ذلك قوله جلَّ من قائل:﴿...وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ١٢﴾ الحجرات: 12،

إن مضمون «بعض» الأولى في الجزء الذي أثبتناه من الآية يحيل على أولئك الذين يتناولن غيرهم بالسوء ويتتبعون معايبهم ونقائصهم، بمعنى إن مرجعها هو المعتدون، أما « بعض» الثانية فمرجعها المُعْتَدَى عليهم، وبالإضافة إلى ذلك فإن المقصودين بالخطاب (المعتدون والمعتدى عليهم) ليسوا عامة خلق الله أجمعين؛ فغير المؤمنين مستثنون من الخطاب ولا يدخلون في المجال الدلالي الذي تستمد منه «بعض» في الحالتين حمولتها الدلالية، لأن الخطاب كما يوضحه القسم الأولى من الآية موجه إلى المؤمنين دون سواهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ...﴿١٢﴾﴾ الحجرات: 12.

بهذه الكيفية التي وُظِّفَتْ فيها في الخطاب القرآني حسب ما يلائم مقاصده التبليغية وظفت أيضا في غيره من الخطابات ومنها الخطابات الأدبية، فإبراهيم نصر الله استعملها هذا الضرب من الاستعمال في روايته « حرب الكلب الثانية» فقد قال ساردها « وجود سيارات إسعاف بصورة مستمرة أعطى الناس بنوعيهما في زمن الظلام الكئيب ثقة كبيرة في أنهم بين أيدٍ أمينة، بل إن بعضهم أصبح يفرط في تناول أشياء لم يكن يتناولها من قبل أو يكثر من تناولها ، سواء أكانت مأكولات أو مشروبات أو ما يعقبهما»[1].

إن «بعض» في هذا المقطع السردي لم تَعُدْ مبهمة الدلالة مثلما كانته قبل توظيفها في الخطاب، فهي في موضعها منه تحيل على صنفين من الناس هم الفقراء، المعوزين والأثرياء الذين دار حولهم الحديث في الرواية من قبل، فأصبحت نتيجة لذلك تعبر عن مُعيَّنٍ، وهذا المُعَّين في هذه الحالة هم بشر من الجنسين ينتمون إلى فئتين اجتماعيتين مختلفتين من حيث وضعهما المادي، وهو ما أراد المؤلف التذكير به في هذا الموضع من خطابه لغاية ذات

(1)- إبراهيم نصر لله، «حرب الكلب الثانية» (رواية) ، ط. 6، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، 2018، ص. 68.

علاقة بالرسالة التي أراد تمريرها وهي التنبيه على الاستغلال البشع الذي يتعرض له الإنسان من أي مستوى اجتماعي كان من قبل محتالين وسماسرة يستغلون حالات الضعف التي هم فيها لاستنزافهم مثلما يفعله مالك سيارات الاسعاف (بطل الرواية) والمتآمرين معه في مشروع إنساني استعمل لأغراض غير إنسانية.

وهناك أدلة مهمة أخرى لا يُستغنى عنها في صناعة الخطاب، وهذه ليست لها وظيفة تلك التي تقدم الكلام عليها، فهي لا تكون مثلها أدلة على أدلة حسب عبارة الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، فعملها يقتصر على تعيين مضامين أدلة أخرى أو تستعمل لتأكيد عدم تعيين مضامينها [1]، كما هو الشأن بالنسبة إلى «أل» التعريف وتنوين التنكير والإضافة والنداء، فهذه الأدلة لها أهميتها هي الأخرى في تمكين المخاطب من التصرف في المعاني التي تحملها العناصر اللغوية المتآلفة في نسيج الخاطب على النحو الذي تتطلبه الرسالة التي يروم إيصالها إلى متلقيه. ففي الخطاب القرآني وفي الخطابات الأدبية استعمال واسع لهذه الأدلة يُميط اللثام عن الدور الذي تؤديه في صناعة الخطاب. من المعروف نحويا أن النكرة تدل على ما يجهله المُخَاطَب سواء أكان هذا المجهول من المخلوقات الحية أم من الأشياء الأخرى التي تحفل بها الطبيعة، وقد يقصد منشئ الخطاب إلى استخدام ما يتحدث عنه بهذه الصفة، أي أن يتركه على إبهامه ليقع على أي مسمى من جنسه، لأن الاسم النكرة كما يقول المبرد: «هو الواقع على كل شيءٍ من أمته ولا يخصُّ واحدًا من الجنس دون سائره» [2]، ففي قوله تعالى: ﴿وجاء رجُلٌ من أقصى المدينة يسعى، قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين﴾

(1)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 255.

(2)- أبو العباس المبرد، المقتضب، 4/286 نقلًا عن عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص. 79.

(القصص: 20)، إن كلمة «رجل» لا تُعَيِّنُ في سياق استعمالها في الآية مَنْ هو الرجل المقصود من بين جنس الرجال، واستعمالها بهذه الكيفية مقصود لأن إخطار الرجل موسى بالمتربصين به لتصفيته كان في سرية تامة وإلا اكتشف أمره فيقع بين أيدي فرعون وملئه فيقتلوه، معنى ذلك أن اعتماد التنكير في هذه الحالة أملته ضرورة خطابية حتى تنسجم هذه الوحدة (أي كلمة رجل) دلاليا مع السياق الذي وظفت فيه، فيكون للسرية التي سيغادر فيها موسى المدينة معنى﴿ فخرج منها خائفا يترقب قال ربي نجني من القوم الظالمين﴾ (القصص: 21)، وإذا ما اقتضت ضرورة خطابية إزالة الإبهام عن النكرة والانتقال بها إلى التعيين فإن اللغة تضع بين يدي المُخاطِب وسائل لتحقيق هذه الغاية، وهذه الوسائل هي العلامات أو الأدلة التي قلنا، إن وظيفتها في الخطاب هي تعيين مضامين أدلة أخرى كما في قوله عزوجل ﴿ يا نساء النبي من يأتي منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرًا﴾ (الأحزاب: 30).

إن كلمة «نساء» من حيث هي وضع من أوضاع اللغة نكرة ومبهمة ، لأنها في صورتها هذه ذات مضمون دلالي عام يجعلها صالحة لأن تحيل على جميع النساء من دون أي تحديد، بمعنى إنه لا يتأتى للمتلقي عند ورودها في الخطاب على هذا النحو أن يعرف على أيٍّ من النساء تقع على وجه الدقة والتحديد. ودفعا لهذا التعميم، وانسجاما مع الغرض التبليغي في الآية، ولأهمية هذا الغرض أحيطت بعلامتين من العلامات التي وظيفتها في الخطاب تعيين مضامين غيرها من الأدلة: العلامة الأولى هي النداء بـ«يا» وهي الخطوة الأولى لإخراجها من الإبهام الذي كانت فيه، والعلامة الثانية هي الإضافة والإضافة هنا ليست أية إضافة، إنما هي إضافة إلى شخص النبي بكل ما هو مفعم به من حمولة دلالية دينية وقُدسية. والتأكيد على تعيين مضمونها بهاتين العلامتين ذوعلاقة بطبيعة مضمون الخطاب في الآية : فالمسألة تتعلق

بتحذير من أمرٍ عظيم يجب اجتنابه، فالله عزَّ وجلَّ إذا كان قد نهى الناس جميعا عن ارتكاب الفاحشة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾. (النحل: 90)، فإن نهيه نساء النبي من الوقوع فيها أولى، وليس أدل على عظمة هذا الأمر عندما يتعلق الأمر بنساء النبي خاصة أنه تعالى حرَّم حتى اقْتِرَانَهُنَّ بغيره من بعده مصداقًا لقوله جلَّت قدرته يُخَاطِبُ عباده المؤمنين ﴿(. . .) وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما﴾ (الأحزاب: 53). فإذا كان مثل هذا الاقتران أمراً عظيماً عند الله ، فإن إتيانهن الفاحشة أعظم، وعليه تبدو العلاقة واضحة بين الغرض التبليغي في الآية وبين اعتماد التعيين فيها بعلامتين، وكيف أن هاتين العلامتين (النداء والإضافة).الملحقتين كأداتين زائدتين بالوحدة المقصود تعيينُ مضمونها مكنتا من إنجاز هذه الوظيفة حسب ما يناسب الغاية المتوخاة من الخطاب، فلو اكتفت الآية بالنداء مع اعتماد بناء «نساء» على ما ترفع به وهو الضَّم «يا نساءُ» على سبيل النكرة المقصودة، فإن هذا الإجراء ينتقل بها من الشيوع وعدم التحديد إلى التعيين، سوى إن هذا التعيين لا يحقق هدفًا تبليغيًا بالأهمية التي ألمحنا إليها، لذلك وقع تأكيده بالإضافة على النحو الذي حاولنا أن نبينهُ وبُنيت الوحدة المراد تعيين مضمونها على الفتح حسب ما يقتضيه نظام اللغة العربية.

وأداة التعريف «أل» من الأوضاع المبهمة أيضا التي يُعْتَمَدُ عليها كذلك لتعيين مضامين العناصر اللغوية التي يتشكل منها الخطاب عندما تُلْحَقُ عَلاَمَةً بالوحدات المناسبة لها، فهي في استعمالاتها المختلفة تفيد التعيين على اعتبار أن منشئ الخطاب يستغلها فضلاً عن ذلك لأداء أغراض خطابية أخرى[1]* أما لُجُوؤُهُ إليها لنقل الوحدة اللغوية ذات العلاقة في خطابه من

(1)* كأن تُستخدم للعهد الذكري بأن تفيد علم المخاطب المسبق بمصحوبها لِوُروده نكرة

الإبهام أو من العموم والشيوع إلى التعيين حتى يتجلى لمتلقيه مضمونها على وجه التحديد، فمما نمثل له به قوله جلَّ من قائل: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا﴾(الإنسان: 01).

إن الوحدة اللغوية «الإنسان» وردت في سياق الآية معرفة ب «أل»، وصورتها قبل إلحاق هذه العلامة بها هي « إنسان» التي وإن لم تكن متوغلة في الإبهام شأن «مثل» أو «غير» من حيث إنها تحيل على أي فرد من الأفراد في حقل دلالي معين هو حقل المخلوقات الحية الناطقة العاقلة في مقابل الكائنات الحية غير العاقلة وغير الناطقة، وحقل الأشياء ، سوى إنها على الرغم من ذلك لو جاءت في الآية على التنكير، لكان مدلولها مبهمًا على المخاطَب، من جهة أنها ستُحِيلُ على أي فرد من أفراد جنس الإنسان من دون أن تُخَصِّصَهُ بالتعيين من بين أفراد جنسه. ولما دخلت علامة التعريف «أل» في الآية على الوحدة النكرة «إنسان» وهو واحد من بين أفراد جنسه الإنساني، كانت وظيفتها في موضعها هذا لا تعريف الإنسان من حيث هو فرد وإنما تعريف الجنس الذي إليه انتماؤه انسجاماً مع القصد التبليغي في الآية الذي لا يستهدف إنسانًا بعينه إنما يستهدف جميع من في حكمه، أي جميع أفراد جنسه، فمدلولها على إثر تعريفها يغادر الإبهام الذي كان يَلُفُّهُ من حيث إنه كان يدلُّ على أي فردٍ على سبيل الشيوع، ليحيل على الجنس كله من دون استثناء أي فرد من أفراده، فالجميع على وجه التحديد والتعيين مَعْنِيٌّ بخطاب المولى عزَّ وجَلَّ في الآية، فلو قلنا على خلاف ما جاء في الآية: «هل أتى على إنسان حين من الدهر»، لكان استخدامها هنا مُبْهَمًا وغير

في كلام سابق في الخطاب، وكأن تستعمل للدلالة على عهد ذهني أو علمي بين المخاطِب والمخاطَب قبل مجيئها في الخطاب فترمز حينئذ إلى تقدم علم المخاطَب بمصحوبها، أو تكون للعهد الحضوري، عن هذه الوظائف الخطابية لـ «أل» ينظر: مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر 1400 هـ 1980م 1/150، وعباس حسن، النحو الوافي، مصر دار المعارف (د. ت) 1 /423 - 424 و 425.

مُحَدَّدٍ، لأن مثل هذا الكلام لا يَخُصُّ فردًا بعينه، فالكلُّ يمكنه أن يتساءَلَ: منْ المَعْنِيُّ بهذا الخطاب من الأناسي وهم عدد يعزُّ إحصاؤه؟! بينما كان المعني بالخطاب في الآية الجنس البشري كله، فلا يمكن لأي من أفراده أن يستثني نفسه منه. وعن مثل هذا التعيين الذي أفاده التعريف بالعلامة «أل» يقول عباس حسن: «فمنها (أي ألْ) التي تدخل على واحد من الجنس فتجعله يفيد الشمول والإحاطة بجميع أفراده إحاطة حقيقية لا مجازفيها ولا مبالغة»[1].

النموذج الثاني الذي نَسُوقُهُ لتبيان ما تتيحه هذه العلامة لصانع الخطاب من إمكانات لتعيين مضامين العناصر اللغوية التي يستخدمها في خطابه والتي تقبل إلحاقها بها، هو قول السارد في السطور الأولى من رواية سعيد مكاوي « أن تحبك جيهان»: «كُلَّمَا أوغلنا في الطريق كانت قطرات المطر تزداد حِدَّةً وتتسع البقع التي تخلفها على الزجاج الذي لم تفلح المَسَّاحةُ البَائِسَة في جعله صالحًا للرؤية، رغم جهادها الشديد لإزالة الأتربة العالقة به ومُخلفات الطير التي لم يهتم السائق بإزالتها كاهتمامه بنظافته»[2].

ضَمَّن المؤلف هذا المقطع السردي من خطابه عددًا من الأسماء التي يُضَنِّفُهَا النحو العربي في ما يطلق عليه « الاسم المختص» أو « الاسم العام» [3]، وهي أوضاع مبهمة وإن لم يكن إبهامها مطلقا لانحصاره داخل الجنس. وسنكتفي بمعاينة اسم واحدٍ مما ورد في المقطع السردي التي أثبتناه، فتتناوله من حيث هو وضع من أوضاع اللغة ثم من حيث هو وحدة لغوية من مكونات الخطاب حسب الصورة التي اختارها لها منشئ الخطاب: فمن بين الوحدات التي ألحق بها الكاتب علامة التعريف « أل» كلمة «طريق»، التي

(1) - عباس حسن، النحو الوافي، مرجع سابق، 1/426 وقد أفدنا أيضا من كلامه في ص. 425.

(2) - سعيد مكاوي، « أن تحبك جيهان» (رواية)، ط.1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2015، ص 07.

(3) - ينظر عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 81.

في صورتها هذه، أي من حيث هي نكرة تنسحب على أي طريق من الطرقات على سبيل الشيوع وعدم التعيين، وهو ما لم يقصد إليه مستعملها في المقطع السردي المذكور، فلو كانت تلك هي غايته لجاء بها مجردة من علامة التعريف، فاختياره التعريف بدلاً من التنكير تبرِّرُهُ خطابيًا رغبته في استمالة قارئه منذ مفتَتَحِ الرواية ليندمج معه في العملية السردية، لذلك جاء كلامه وكأنه استئناف لكلام سَبَقَ لمتلقيه العِلمُ به وهو ما تؤديه الوحدة «كلما» التي تفيد التكرار، فكأن كلاماً سابقاً جرى عن هذا الطريق الذي يسلكه السارد وسائقه والقارئ على دراية به، فلما عاد (أي السارد) للحديث عنه جاء به معرفا ب «أل» على سبيل العهد الذكري حتى لا ينصرف الذهن (ذهن القارئ) إلى طريق غير الطريق المعروف لهما، لذلك يقول بعض النحاة العرب القدامى في كلامهم عن تعريف النكرة ب»أل» في مثل هذه الحالة: « تعريفها بالألف واللاّم من دلائل الأسماء التي تختَصُّ بها لأنها يشير بها المتكلم إلى عهد بينه وبين من يخاطبه في الذي يدخل عليه الألف واللاّم »[1]. معنى هذا أن منشئ الخطاب لجأ إلى هذه العلامة (أل التعريف) في الموضع المشار إليه من خطابه ليُعَيّن لمتلقيه المضمون الدلالي للوحدة اللغوية التي أدخلها عليها حتى لا يلتبس عليه الأمر في ما يُحَدِّثه عنه، فيتبيّن أن الكلام لا يخص طريقا آخر غير الطريق المعروف لديه من قبل .

هكذا تتبيَّنُ أهمية هذا الصنف من الأدلة الوضعية المبهمة التي يستعملها المخاطِب (كاتبا كان أو متكلّمًا) في صناعة خطابه، باستخدامها وفقا لما تستوجبه الرسالة التي يريد تبليغها لمتلقيه. فهذه الوسائل لا غنى لمنشئ الخطاب عنها عندما يتطلب منه الموقف تعيين مضمون من مضامين العناصر اللغوية المكوّنة لخطابه أو حتى للتأكيد على شيوعه وعدم تعيينه،

(1)-الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، مرجع سابق، ص.120 وينظر عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص.85.

وهو القصد الذي يتوسَّل لإنجازه بتنوين التنكير بوصفه من صنف الأدلة المبهمة التي يلحقها المتكلم أو الكاتب بأدلة أخرى في نسيج الخطاب حسب ما تقتضيه بِنْيَتُهُ. فهذه العلامة (تنوين التنكير) يلحقها منشئ الخطاب بالعناصر اللغوية المناسبة لها إذا ما استوجب موقف خطابي معين أن تفيد الوحدة ذات العلاقة في بنية الخطاب الشيوع بدلاً من التعيين الذي تفيده في أصل الوضع[1]*. بمعنى إن تنوينها إشارة من صانع الخطاب إلى أنه لا يريدُ مما تدُلُّ عليه شيئا بذاته ومحدَّدًا كل التحديد؛ فـ«عُثمان» على سبيل المثال من أسماء العلم، وكونه كذلك جعله معرفة، فهو إذًا معين بنفسه، سوى إن كونه ممنوعا من الصرف يجعل احتفاظه بتعيينه مشروطا بعدم تنوينه، وبهذه الصفة يكون متاحًا لمنشئ الخطاب أن يتصرف في دلالته فينتقل بها من التعيين إلى عدمه إذا ما استدعى منه ذلك قصدُه التبليغي، كما هو الشأن في عبارتنا التالية:

« مرت أيام لا نعلم عددها على وجه التحديد قبل أن نُلقيَ عصا ترحالنا في مدينة أحلامنا. فقد التقينا في طريقنا إليها عثمانا، ويبدو من ثيابه الرَّثة ومن ملامحه التي غارر ونقها وتشربت غبار المفاوز التي عركته أنه ناج بجلده من مهلكه، أو أن الحياة في موطنه جفّت منابُعها فلم يجد بُدًّا من الضرب في الأرض بحثا عما يقيم به الأود ويسد الرمق ». إن إدخال التنوين على «**عثمان**» [2]* يُعتبر إشارة إلى أنه لا يُقصد منه شخصٌ معينٌ معهود لصاحب الخطاب ولمخاطَبِه ويتجه الذهن إليه وحده دون سواه ممن يحملون هذا الاسم. والسياق الخطابي هو ما يبرر إيثار الشيوع على التعيين في مثل هذه

(1)* يتعلق الأمر ببعض الأسماء المبنية وببعض الأسماء المعربة غير المنصرفة، لأن هذه العلامة لا تدخل على غير المبني من الأسماء، وإدخالها عليها القصد منه تنكيرها لتفيد الشيوع وعد التعيين، وبخروجها عنها تعود إلى أصلها وهو التعيين والتحديد. يُنظر، عباس حسن، النحو الوافي، مرجع سابق، 1 /36 - 37.

(2)* - ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل، فهو لا يحتمل التنوين إلاَّ إذا أريد تنكيره.

الحالة؛ فواضح من سياق الكلام أن «عثمان» هذا شخصٌ طارئٌ لا عِلْمَ به للمتحدث ولا للمتحدث إليه، وهو ما أفادته علامة التنوين الملحقة به.

وفي اللغة أوضاع أخرى غير ما ذكرناه يستعين بها مُنشئ الخطاب لإضافة معنى من المعاني إلى عنصر من العناصر المكونة لخطابه عندما يُحوجه إلى ذلك موقف خطابي ما، وحينئذٍ يُلحق هذه الأوضاع على شكل زوائد بالعناصر المقصودة في الخطاب لتأدية الغرض، فيُدمَجُ معناها النحوي في معنى العنصر الذي تُلحق به. والأوضاع التي يُسخِّرها المخاطِبُ لأداء هذه الوظيفة هي ما يطلق عليه النحاة حروف المعاني مثل حروف الجر التي يسميها بعضهم حروف الإضافة (بحكم أنها تجلب معها معنى جديدا تضيفه إلى ما تتصل به)، وحروف النفي والرجاء والتمني وأدوات الاستفهام والتوكيد والشرط والنواصب والجوازم وغيرها ممَّا فَصَّلتْ فيه كتب النحو[1].

إن هذه الوسائل اللغوية وإن كانت غير دالة في ذاتها ، أي من حيث هي أوضاع لغوية ، فإن استخدامها في الخطاب حسب ما تقتضيه السياقات والمواقف يرافقه أثر دلالي تستوجبه الرسالة التي يتضمنها الخطاب والقصد المرادُ تبليغه للمقصود بالخطاب. كما هو الشأن في قوله تعالى: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريَهُ من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾(الإسراء 1). إن وظيفة الحرف «من» (المستخدمة مرتين). و «إلى» في الآية ليست مجرد وظيفة نحوية إعرابية، إنما هي وظيفة دلالية اقتضاها القصد التبليغي فيها، فالمولى عزَّ وجلَّ قصد قصدًا تعيين مَسار رحلة الرسول (ص) تأكيدًا منه على قدرته على الفعل، فجاءت «من» الأولى لتحديد نقطة بدايتها، فأفادت معنى الابتداء الذي ظهر على الوحدة اللغوية التي تلتها مباشرة وهي «المسجد الحرام» ثم جاء الحرف «إلى» ليفيد معنى الانتهاء، أي انتهاء مسار الرحلة الذي ظهر في الوحدة التي

(1)- يُنظر مثلًا عباس حسن، النحو الوافي، مرجع سابق، 1 /66 - 71 و3 /80،87 ومصطفى الغلاييني جامع الدروس العربية، 1/ 141 و2 /317 - 325 و3 /145 - 195.

أُلحق بها وهي«المسجد الأقصى». فهذا المسار الذي تحدد انطلاقاً وانتهاءً إنما تحدّد بفضل الحرفين المذكورين. واستعمالهما على هذا النحو الغاية منه إظهار قدرته تعالى الذي لا يعجزه إنجاز أي فعل يريده مهما كانت عظمته وتجاوز قدرة مخلوقاته من الإنس والجن مجتمعين «إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوتُ كل شيء وإليه ترجعون» (يس، 82 و83). فهذا المسار عندما يتعلق الأمر بقدرة الإنسان من حيث هو إنسان يتطلب قطعه أيامًا كثيرة ، وهو ما جعل كفار ذلك الزمان يشكِّكُون في حقيقة الإسراء، لأن تحقيقه حسب تقديرهم البشري لا يمكن أن يتم في زمن قصير جدا مثل الزمن الذي نصت عليه الآية (ليلاً). وجاءت «من» الثانية لتفيد معنى جديدا، غير معنى «من» الأولى، ظهر من خلال الوحدة اللغوية التي تلتها مباشرة في الآية وهي (آياتنا) ، وهذا المعنى هو البعضية حسب ما أرَادَ جلّت قدرته الإخبار به، فلو جاءت الآية مجردة من حرف المعنى «من» في هذا الموضع لَدلّت على غير ما دَلّت عليه مع «من» ، لأنه ليس سيان القول «لنريه آياتنا» وقوله تعالى «لنريه من آياتنا»، لأن التعبير الأول لو كان حصل لكان المراد أنه سبحانه وتعالى أرى رسوله (ص) آياته كلّها، وليس هذا هو المعنى الذي أدّته الآية.

إن توظيف مثل هذه الأوضاع اللغوية كثير في الخطابات الأدبية حسب ما تتطلبه الأهداف التبليغية للخطاب، من ذلك استعمال الروائي واسيني الأعرج أداة الشرط «لو» في سياق كلامه عن تولي مسعود رعاية كازانوفا المريض بعد خروجه من المستشفى في روايته «نساء كازانوفا»، فقد جاء توظيفها كما يلي : «[...] بفضل الإسعافات العاجلة استطاع كازانوفا أن يتفادى نوبات اختناق خطيرة كادت تودي بحياته. لو لم يجد مسعود بجانبه لانتهى باختناق أكيد وبانسداد في حلقه»[1].

(1) - واسيني العرج «نساء كازانوفا» (رواية) ط1، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، 2017، ص281 - 282.

استخدم الروائي «لو» المتبوعة بأداة الجزم «لم» عوضا عن «لولا» أو «لوما» المناسبتين في مثل هذا الموضع أيضًا، لغرض إفادة امتناع اختناق الشخصية المتحدث عنها ووفاتها، وهو ما يسمى نحويًا «امتناع جواب الشرط لتوفر الشرط»، وهو حضور مسعود الذي يتكفل برعاية الشخصية المريضة، فالامتناع في هذا السياق السردي معنى مستحدث ظهر في الخطاب بدخول «لو» المتبوعة بـ «لم» على الجملة. والغرض الخطابي الذي استهدفه الروائي من اختياره هذه الأداة للوصول إلى المعنى المراد هو التأكيد على حالة الضعف الشديد الذي توجد فيه الشخصية فأفقدها قواها وأضحت في حاجة ماسة إلى الغير وإن كان هذا الغير من البسطاء مثل مسعود[1]*. أليس هذا الرجل وهو من قبيل الخدم هو الذي أنقذ كازانوفا من الموت بحضوره إلى جانبه؟ هو (أي كازانوفا) الذي كانت الأعناق، قبل المرض الذي ألمّ به، تشرئب إليه والنفوس طوع إرادته ورهن إشارته، فقد كان الناس يُبجِّلُونَهُ ويعظمونه بلا حدود كما يفصح عن ذلك توافد كبار القوم على بيته عندما أصيب بالإغماء: "[...] منذ أن أصيب كازانوفا بالإغماء الأخيرة والسيارات الرسمية تأتي يوميا. تقف في المكان نفسه محدثة ضجيجا كبيرا، وحركة غير عادية في البيت وخارجه، وابتعادا سريعا للناس، ينزل صالح محافظ شرطة منازة سيتي من سيارته المصفحة الخاصة مرفقا بشابين قويين يلبسان زيا مدنيا، يستقبله كبير الإخوة كازانوفا، بشير برفقة أخيه الأصغر يونس حتى ولوكانا في عمق الاجتماع"[2].

إن المفارقة بين أمس كازانوفا وراهن حياته بلّغها الروائي لقارئه في الموقف السردي الذي نحن بصدد معاينته من خلال استعماله الأداة «لو» التي وإن كانت مبهمة من حيث هي وضع، فإن إدراجها في نسيج الخطاب على

(1)*مسعود مثلما قدمته الرواية شخصية بسيطة تعنّف وتشعر بالدونية تجاه الآخرين، فهي تنادي الرجال بـ«سيدي» والنساء بـ «لالة»، تنظر الرواية الصفحات: 284،283،282 وما بعدها.

(2) - واسيني الأعرج، «نساء كازانوفا» ، مرجع سابق، ص52 .

النحو الذي رأيناه رافقه معنى لا يدرك من لفظها المجرد وهي خارج الاستعمال إنما ظهر على ما بعدها في أضعاف الخطاب فتجلّى ما قصد منشئه تبليغه إلى متلقيه وهو المفارقة الصارخة بين ما كان عليه كازانوفا بالأمس والحال التي أضحى عليها، فمن كان لا حول له ولا قوة بالأمس أمام ما كان لسيده من سلطان عليه يوم كانت حياته وقوت يومه متعلقين به، ارتبطت حياة سيده في لحظة ما بوجوده هو إلى جواره في تبادل للمواقع، في أزمنة متغايرة، مشحونة بالدلالة.

3- إسهام المتلقي في صناعة الخطاب:

من البيّن إذًا أن الوسائل اللغوية التي اخترنا الاستشهاد ببعضها تؤدي وظائف أساسية في صناعة الخطاب، وأن المخاطِب سواءً أكان متكلمًا أم كاتبًا ليس في مستطاعه البتة الاستغناء عنها في تبليغ مقاصده إلى جمهوره، سوى إنه من الأهمية بمكان التذكير بأن ما تقدم من كلام لا يعني أبدا أن صناعة الخطاب تعود مهمتها إلى المُخاطِب وحده ولا ينازعه في ذلك منازع، لأن القول: إن المخاطب هو وحده سيّد الموقف ولا يأبه بسواه في إنجاز خطابه يترتب عنه أن المتلقي فردا كان أو جماعة يتلقى ما يقدمه له وهو في سلبية مطلقة، وهو تصور أبعد ما يكون عن حقيقة الاتصال اللغوي (الشفوي والكتابي) الذي يجري بين المخاطِب ومخاطَبه أو مُخَاطَبيه، لأن الاتصال اللغوي من أي نوع كان ليس أحادي الاتجاه، وإن كان يبدو كذلك عندما يتعلق الأمر بالخطاب المكتوب الذي يكون فيه متلقيه محرومًا من التدخل المباشر في صناعة الخطاب[1]. ولكن كما يقول جاكبسون، كل خطاب فردي يفترض تبادلاً[2]، والتبادل يعني المشاركة في هذا الخطاب الفردي، لذلك قلنا في ما تقدم إن الكاتب عندما يكتب لجمهور لا يعرفه، فإنه يصنع خطابه

(1)- Voir Cathérine Kerbrat – Orecchioni, Les interactions verbales 1/ approche interactionnelle et Structure des conversations, 3ème éd, Armand Colin, Paris 1998, T.1 p.10.

(2)- Jakobson cité par Cathérine Kerbrat Orecchioni, op.cit,p.12.

لجمهور يفترضه في ذهنه ويتوقع ردود أفعاله تجاه ما يخاطبه به. فلو يتجاهل منشئ الخطاب جمهوره تجاهلا كليا، فإنه لا يضمن مرور رسالته ولا إدراك مقاصده. ويظهر وَضْعُ المُخاطَب أو المُخاطَبين في الاعتبار عند تأليف الخطاب من اختيار مؤلفه اللغة التي يكتب بها، فهذا الاختيار إشارة أولى منه الى أن من يخاطبهم هم ابتداءً من أهل هذه اللغة (وقد لا يكونون جميعا معنيين بالخطاب) أي من الذين يفهمون منطوقه أو منطوقه ومكتوبه في آنٍ معًا (حسب طبيعة الخطاب)، من حيث إن اللغة قاسم مشترك بينه و بينهم، لأنه لو لم تجمعه بهم مُواضَعَة لغوية لتعذر حصول التفاهم بينهما (مؤلف الخطاب و الجمهور)، و لبقي خطابه كلمة صماء مغلقة، كما قال القاضي عبد الجبار يتحدث عن اللغة و مستعملها : لو لم «يتواضعوا عليها لما صح في لغات أدلة تفهم بها الأغراض ، يقع بها التخاطب»[1]. لأن اشتراكهما في معرفة أوضاع اللغة التي يجري بها التواصل شرط أساس لتحقيقه، وليس المراد بالاشتراك هنا حصول التطابق الكامل بين الأرصدة اللغوية للمتخاطبين حتى وإن كانوا من نفس الجماعة اللغوية (communauté linguistique) [2] إنما المراد منه أن يتوافر على الأقل القدر المطلوب من الاشتراك الذي يتحقق من خلاله التواصل الذي لا يتم في الحقيقة بأوضاع اللغة بمفردها مهما كانت نسبة التقارب بين الحصائل اللغوية الصرف لشركاء التواصل اللغوي، لأن هناك معاني « لا تُحصَى تدل عليها دلالات أخرى غير الدلالة اللفظية الوضعية» [3] على اعتبار أن المضمون الإفادي للخطاب لا تؤديه بنيته اللفظية الظاهرة وحدها، فبحكم أن الخطاب ذو طبيعة إضمارية، فإن هذا المضمون يتوقف أداؤه أيضا على ما هو مضمر فيه، أي ما يقوله من دون أن يصرح به من خلال الدلالات المباشرة لعناصر بنيته اللفظية، وهو

(1) - القاضي عبد الجبار، المُغني، 16 /309 - 310.

(2)- Voir, Cathérine Kerbrat – Orecchioni, L'énonciation, op.cit.p.14.

(3) - عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب. ص 132.

ما يُحْوِجُ الوصول إليه إلى مشاركةٍ إيجابية من المتلقي، سواء أكان الخطاب مكتوباً أم شفوياً يستعين فيه (أي المتلقي) بالظروف الحافة به لاستشفاف مضمونه ومقاصد منشئة ، ولابن قيم الجوزية كلامٌ وإن كان يتحدث فيه عن التخاطب الشفوي باللغة فإنه ينسحب أيضا في تقديرنا على الخطابات المكتوبة على ما بين الصنفين من التواصل من فرق لا يمكن تجاهله. فابن قيم يؤكد على مشاركة المتلقي في صناعة معنى الخطاب من حيث أنه مشارك « للمتكلم في حال معنى الكلام»[1].

إن هذه الإشارة من ابن قيم تُفِيدُ أن صناعة معنى الخطاب لا تتمُ بمعزلٍ عن متلقيه، وأن للمتلقي اسهامًا فيها، وهوما سنحاول تبيانه.

تجدر الإشارة في هذا السياق الى تمييز نعتقد أنه مهم للغاية وَضَعَهُ بعضُ العلماء في التراث اللغوي والنحوي العربي بين « المعنى» و « الإفادة» في الخطاب، أي بين مضمونه الدلالي ومضمونه الإفادي، واستناداً إلى هذا التمييز يقول ابن السراج: «أصل الكلام موضوع للفائدة»[2]. مؤدي ذلك أنه يُشْتَرطُ في الكلام أن يحمل للمتحدث إليه فائدة، ومنه يترتب أن من الكلام ما لا يحمل فائدة للموجه إليه، من حيث إنه لا يضيف إلى عِلْمِهِ السابق جديداً، فما يتضمنه من معنى يدخل في معارفه السابقة. ومنه أيضا يترتب وُجُوب وَضْع مُنشِئ الخطاب متلقيه في اعتباره ضمانا لنجاعة عملية التواصل وانعقاد الصلة بين الخطاب والمخَاطَبِ (أو المُخَاطَبين).

إن وضع المتلقي في الحسبان أثناء إنشاء الخطاب هو ضربٌ من مشاركته غير المباشرة في صناعته، لأن مؤلفه في هذه الحالة، وتحقيقًا لتجاوب جمهوره مع رسالته اللغوية لا بد له من معرفة مسبقة بهذا الجمهور: (ثقافته، عاداته وتقاليده، القيم والمعتقدات التي يؤمن بها... الخ). إن هذه المعرفة لا بُدَّ منها

(1) - ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، القاهرة (د. ت) 2/ 176.

(2) ابن السراج، الأصول في النحو، تح.ع. الفتلي، بيروت 1985 ، 1/66

ولو على سبيل افتراض المؤلف لقارئ يرسم تقاسيمه في ذهنه ويُؤَلفُ خطابه على ضوئها، تجنبًا لإخفاق عملية التواصل، لأن المتلقي حسب فكرة ابن السراج التي أَلْمَحْنا إليها هو المرجع في الحكم على الرسالة الموجهة إليه، فإذا كان مضمونها بالنسبة إليه معدومًا من حيث الإعلام والإفادة، فإن مضمونها الدلالي الصرف لا يشفع لها عنده، وفي هكذا حالات تؤول عملية التوصل بين مؤلف الخطاب ومتلقيه (فردًا كان أو جماعة) إلى الإخفاق: فوضْعُ المؤلف عِلْمَ المُخَاطَب في حسابه هو ما يجنب خطابه هذا المآل، ويؤكد مرة أخرى مشاركة المتلقي في صناعة الخطاب وإن كانت هذه المشاركة في هذه الحالة غير مباشرة كما ذكرنا من قبل. ونظن ظنًا أن رولات بارث كان يتحدث عن شيء قريب من مشاركة المتلقي هذه في إنشاء الخطاب عندما قال: « [....] ففي النص، القارئ وحده من يتكلم، وهذا القلب يجعل من القراءة استقبالاً وفي الوقت ذاته مشاركة نفسية في المغامرة المروية»[1]

4- دور الأدلة غير اللغوية في تلقي الخطاب:

لا يتوقف إسهام المتلقي في صناعة الخطاب عند حدِ هذا الاعتبار الذي يمنحه أياه مؤلفه، إنما له صور أخرى من الحُضور في نصِ الخطاب، فقد سبق أن قلنا إن الخطاب ذو طبيعة إضمارية ، وهذا الإضمار ليس محض اختيار خاضع لمشيئة صانعه وحده، إنما هو مما يَفْرضُ المتلقي أن تأتي عليه بنية الخطاب الذي يستهدفه، فمُنْشِئُهُ لا يحذف ولا يختصر ما يختصره ويستغني عنه إلا بسبب عِلْمِهِ أن من يُخاطِبُه (أويُخاطِبهم) على عِلمٍ مسبقٍ به أو أنه بإمكانه استخلاصه بالاعتماد على معارفه السابقة أو بإعمال العقل، وهذا الصنف من المعارف السابقة التي يستدعيها المُخَاطَبُ أثناء تلقيه الخطاب لفهمه ولإدراك مقاصدِ صاحبهِ هي من أهم ما يُسمى بالدلائل غير اللفظية التي لا غنى له عنها في فهم فحوى الرسالة التي يحملها الخطاب أو في

(1) Roland barthes. s/z èd du seuil .paris 1970.p. 157

رفع ما قد يكتنفها من غُمُوض أو يبدو فيها من تناقض بسبب ما طال بنيتُهُ (الخطاب) من حذف. وعن أهمية هذه القرائن في الوقوف على مالم يُعبرعنه لفظ الخطاب يقول القاضي عبد الجبار: « فإنما تدل القرينة على ما لم يود بالكلام أو على الوجوه التي تقع عليها تصاريفُ الكلام »[1].

من هذا الصنف من القرائن أو الدلائل غير اللفظية التي يتوسل بها المتلقي للوقوف على المحذوف من الخطاب لفظًا مع بقائه مَنويًا فيه ما أطلق عليه بعض علماء النحو في التراث العربي « عِلْم المخاطَب»، وهو «كل علمٍ تحَصَّل عليه منذ عهد قريب أو بعيدٍ وهو أيضًا كل المعلومات العامة – البديهية والمكتسبة – التي تحصَّل عليها منذ نشأته بالتجربة وكلَّ ما يستنتجه من هذه البديهيات [...] (و) هو أيضًا علمُه بِمَواضع الكلم في كلام، فهو علمه بحدود الكلام ومواقع عناصره وهو ممَّا اكتسبه ويَدخُل في ملكته اللسانية، وهو عِلمه غير النظري باللغة وكيفية استعمالها ودرجة إجادتها فهذا العِلْمُ يُمَكِّن المتلقي من استرجاع المسكوت عنه في الخطاب، أي ما لم تدل عليه بنيته اللفظية باللفظ الصريح، كما هي الحال في قوله تعالى، ﴿ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا، يا ويلنا قد كنّا في غفلة من هذا بل كنّا ظالمين﴾ الأنبياء.97 . ففي هذه الآية وقع إضمارُ فعل « القول»، فالتقدير «يقولون يا ويلنا» كما جاء في الكشّاف[2]، ودلالة المحذوف يُدركها المخاطبون بفضل المركوز في ملكتهم اللسانية بفعل كثرة وُرُودِ هذا النوع من الحذف في كلامهم، فلا يلتبس عليهم الأمر، فيهتدون إلى أن المقصود في الآية « يقولون يا ويلنا »، والمَوْضِعُ دَلِيلَهُم عليه . ومثل هذا الإضمار الذي يستعين فيه متلقي

(1) - القاضي عبد الجبار، المُغْني، 16 /354. اعتمدنا كثيرًا في الحديث عن أهمية هذه القرائن في تلقي الخطاب على الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، يُنظر كتابه الخطاب والتخاطب الصفحات: 44 - 45، 54 - 55، 60 - 61 ، 254، كما استفدنا من مصادره في هذا الموضوع.

(2) - الزمخشري، الكاشف، دار الفكر، بيروت (د.ت) ، 3 /584.

الخطاب بعلمه « بحدود الكلام ومواقع عناصره » موجود في مواطن كثيرة أخرى في القرآن الكريم[1] منها قوله عزّمن قائل: ﴿ ولاَ تجَادلُوا أهل الكتاب إلاَ بالتي هي أحسن، إلا الذين ظَلَمُوا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزِل إلينا وأنزل إليكم وإلاَ هُنا وإلاهكم واحدٌ ونحن له مسلمون ﴾ (العنكبوت. 46)

فمن دون علم المتلقي بأساليب تأليف الكلام والمواضع التي تحتلها العناصر اللغوية في تراكبيه وهو معرفة سليقية بالنسبة إلى المتلقين الأوائل لمَا كان يَتنزَّلُ على رسول الله محمد (ص) بلغتهم:﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾(يوسف.2)[2]. أقول، من دون هذا العلم سيلتبس عليه (أي المتلقي) الأمر في استشفاف مدلول الآية لما وقع فيها من إضمار، فيتهيَأُ له أن المُرادَ فيها أن الكتاب الذي أُنزل على محمد (ص) هو نفسه الذي أُنزل على أهل الكتاب من قبل، وهو فهم يتضح من كتب التفسير بطلانه[3]، ومرجع ذلك إلى عدم إدراكه «الموصول» المُسْتَغْنَى عنه لفظًا في الآية، وهو ما لا يَنهَمُ أمره على العرب السليقيين الذين أَلِفُوا هذا الضرب من الأسلوب في لغتهم، فيدركون أن هناك وحدةً لغوية مضمرة فيها في الموضع ذي العلاقة وهي اسم الموصول « الذي»، فيفهمون من ثَمَّ أن الأمر فيها يتعلق بكتابين: الكتاب الذي أُنزل على محمد عليه الصلاة والسلام، والكتاب المُنَزَّل على أهل الكتاب من قبل، تمَامًا مثلما جاء في آيات أُخرى في القرآن الكريم وكان الكلام فيها صريحًا عن كتابين بسبب إظهار اسم الموصول الذي حذف في الآية المذكورة، كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يا أيها الذين آمَنُوا آمِنُوا بالله ورسوله والكتاب الذي نُزِّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل . . . ﴾ (النساء. 136) وهو ما قد لا يتيسِر فهمه اليوم لمن لا علم

(1) - ينظر مثلًا: (الأنبياء.103)، (ص.23 و33)، (الأعراف.160 و171)، (الأنعام.93) ، (الإسراء.14).

(2) - وأيضا: (طه.113) و(فصلت.3) و(الشعراء.195)، (الشورى.7)، (الزخرف.3).

(3) - يُنظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، 3 / 315 - 316، والزمخشري، الكشاف مرجع سابق، 3 /207، وقد أفدنا أيضا من عباس حسن، النحو الوافي، 1/393

له مكتسب بالحذف ومَوَاطنِه في الأساليب العربية، فيُخَيّل إليه أن المقصود في الآية 46 من سورة العنكبوت غير المقصود في الآية 136 من سورة النساء فيما يَخُصُّ ما أُنْزل على رسول الله محمد (ص).

وهذا اللون من الحذف وقع أيضًا في النص الآتي الذي نورده لمزيد من البيان، فقد تعدد فيه إضمار اسم الموصول «من»، وهو ما يجعله مُلبسًا على المتلقي الذي يفوته إدراك هذا المحذوف ومواطنه: « أيها العرب، نحن نَعْلمُ ما تفيضُ به صدور أعدائنا من حقدٍ علينا وبعض لنا وأن فريقًا منهم يُدبّرُ المؤامرات سِرّاً وفريقًا يَملأُ الحواضِر إرجافًا، وفريقًا يُعدُّ العدّة للهجوم علينا وإشعال الحرب في بلادنا، ألاَ فَلْيَعْلَمُوا أن مَنْ يُدَبِرُ المؤامرات ويَنشُرُ الأراجيفَ ويَحْشُدُ الجيوش للقتال، كَمنْ يَطرُقُ حَدِيدًا بَارِدًا، بل كَمَن يَضْربُ رأسَهُ في صخرة عاتية ليُحَطّمَهَا، فلن يَخْدُشَها وسَيُحَطِم رَأسَهُ»[1]، فالمتلقي كيما يستقيم له معنى النص يجب عليه أن يتوافر على الكفاءة المطلوبة لإدراك عناصره المضمرة، ويتعلق الأمر في هذا المضمار بالموصول «من» الذي أسقطه مؤلف النص في أكثر من مَوْضعٍ منه تاركًا أمر استرجاعه لمُخاطَبه، لكي يفهم أن النص لاَ يتحدث عن طائفة واحدة ممن يعنيهم بكلامه وإنما عن طوائف كثيرة، وإلاَّ أخطأه إدراك قصد المؤلف، فالمعنى في هذا النص، كما قال الدكتور عباس حسن، يقتضي تقدير أسماء موصول محذوفة وإلاَّ طَالَهُ الفسادُ، فصاحبه أراد أن يقول» مَن يُدبّر المؤامرات، ومَنْ يَنْشُرُ الأراجيف ومَنْ يَحْشُد الجيوش ... ذلك لأنهم طوائف متعددة، ولن يظهر التعدُّدُ إلا بتقدير « من» ولولاها لأوْهمَ الكلامُ أن تلك الأمور كُلّها منسوبةٌ لفَرْدٍ واحدٍ، وهي نسبة فاسدة»[2]، فالمؤلف وإن تَخَفَّفَ من هذه العناصر لفظًا في نصه، فإنه لم يستغن عن دلالاتها في مقصوده، وعلى المخاطب إدراك مواطنها في

(1) - استشهد الدكتور عباس حسن بهذا النص في أثناء كلامه على حذف الموصول، النحو الوافي، 1 /392.

(2) - عباس حسن، النحو الوافي، 1/ 392

البنية اللفظية للخطاب، حتى تتناسق له دلالاتها مع دلالات بقية العناصر حسب ما يقتضيه نظم النص، فيحصل له فهم معناه بفضل تظافر عناصره الحاضرة وعناصر الغائبة المسترجعة معًا.

هكذا تتجلى أهمية عِلْم المخاطبِ، من حيث هو قرينة غير لفظة، في استرجاع الدلائل المتوارية خلف البنية اللفظية للخطاب نتيجة ما يَطَالُه من إضمار[1]*. فمن دون علمه «بمواضع الكلم في الكلامّ»، فإنه يتعذر عليه استخلاص المعنى في ما استشهدنا به وفي أي كلام تُحوجُ بِنْيَتُه من متلقيه التوفر على علم سابق من الصنف الذي تحدثنا عنه، فعلى سبيل المثال كيف سيفهم أن قول الخنساء في سياق رثائها أخاها صخرًا «هو كثير الرماد» أن معناه أنه « كثير القِرَى والضيافة» إن لم يكن له علم بالعرف السائد عند العرب أن كثرة الرماد دليل على السخاء والإكثار من إكرام الضيوف، فكما قال عبد القاهر الجرجاني ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلاَّ أنهم أرادوا أن يَدُلُّوا بكثرة الرماد على أنه تنصبُ له القدور الكثيرة ويُطبخُ فيها للقرى والضيافة[2].

إن وصول المتلقي إلى المعنى عبر علمه السابق ينفي سلبيته في تلقي الخطاب ويؤكد إسهامه في صنع معناه، ويتضح لنا ذلك أكثر عندما ندرك أن المعنى المراد لا يُؤَدّي إليه في جميع الأحوال المعنى المباشر للفظ إنما يكون بُلُوغُه في بعضها عن «طريق معنى المعنى» حسب تعبير عبد القاهر، أي بواسطة الاستدلال العقلي الذي عبّر عنه في سياق تناوله عبارة الخنساء السابقة

(1)* الحذف الذي يطال البنية اللفظية للخطاب لا يخص الأسماء الموصولة وحدها، بل يمكن أن يطال جميع العناصر المكونة للخطاب عدا أحرف المعاني. ومن الحذف ما هو عادة شائعة عند أهل اللغة يلحق بعض الأنماط من التعبير حتى إنه لا يجوز إظهار المضمر فيها، فالمتلقي يفهم ما وقع فيه الحذف أو الاستخفاف كما يسميه سيبويه بحكم العرف اللغوي السائد. ينظر في هذه المسألة، عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص.66 - 67.

(2) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص.431 .

بمثل قوله : « [...] وذلك لأنه إذا كَثُر الطبخ في القدور كَثُرَ إحراق الحطب تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة »[1]. إن تحوّل معنى اللفظ في مثل هكذا حالات إلى دليل يحيل على معانٍ مرتبطة به عقلاً هو من صنف القرائن غير اللفظية التي أكدنا على أهميتها في استقبال الخطاب وفي فهم مقاصد صاحبه. ووصول المتلقي إلى المعنى بالطريقة التي شرحها عبد القاهر يجعل منه « طرفًا في عملية «صنع» النص عن طريق التأويل»[2] فالمعنى الذي انتهى إليه متوسلاً بالاستدلال العقلي لم يقدمه له وَضْعُ اللغة جاهزًا إنما هو ثمرة جُهْدٍ تَأْويليّ وإن انطلق في تحصيله مما يدل عليه اللفظ في الوضع والذي لا تربطه بما قصده صانع الخطاب أية علاقة مباشرة، أو إذا استعرنا عبارة الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح فإننا نقول: « [...] المعنى ههنا غير وضعي، لأنه لازم عقليا للمعنى الوضعي الأول وليس منه، وليس هو هو[3]» .

وهناك حالات يتوسَّل فيها المتلقي بما يختزنه في ذاكرته من معلومات سبق وُرُودُها في الخطاب في فهم ما اسْتغنى مُنشئُه عن ذكره مرة أخرى، ثقة منه في قدرة متلقيه على استرجاع المُستغنى عنه وفهم عبارته التي طالها الاستخفاف، بالاعتماد على ذاكرته، لذلك سمَّى بعض علماء النحو في العربية هذه القرينة غير اللفظية «**تقدم الذكر**»، أو «**ما جرى من الذكر**»، وبهذا المعنى قال ابن جِنّي:

«قد يصلون إلى إبانة أغراضهم بما يصحبونه الكلام مِمَّا تقدم قبله»[4] .

تتعلق المسألة هنا بقرائن مقالية تقدم مجيئها في سياق الكلام وتعتبر

(1) - عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص.431

(2) - نصر حامد أبوزيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ط.6، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، 2001، ص.114

(3) - عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص.132

(4) - ابن جنّي، المنصف، 1/ 255، نقلا عن عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص.55

مرجعًا للمتلقي في فهم ما لم يَعُدْ مؤلف الخطاب إلى إثباته باللفظ في ما تلاَ ذلك، ففي قوله تعالى: ﴿ وأصبح الذين تمَنّوا مكانه بالأمس يقولون وَيْكَ أن الله يبسُطُ الرزق لمن يشاء من عباده ويقدرُ لولا أنْ منَّ الله علينا لخَسَفَ بنا، ويك أنه لا يُفلح الكافرون ﴾ (القصص. 82)، إن الفعل «خَسَفَ» فعل متعدٍ يحتاج إلى مفعول به اسْتُغنيَ عنه[1]*، لا لأن التركيب ليس بحاجة إليه وأن الفهم يمكن أن يستقيم من دونه، وإنما لأنه مرّ على القارئ أو السامع ما يساعده على فهم المراد وهو قوله عزَّ وجلَّ في الآية التي سبقت هذه مباشرة: ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ (القصص. 81)، وعليه يدرك (أي القارئ أو السامع) أن ما استغنت عنه الآية هو كلمة "الأرض" الواردة في الآية التي قرأها أو تليت عليه قبل التي أُضْمِر فيها المفعول به. فبفضل هذه القرينة غير اللفظية، وهي هنا السياق النصي أو المقالي (Le contexte Textuel)، فإن المعنى لا يَغُمُّ عليه فلا يستفهم عن الشيء الذي سَيَخْسِفُه الله بهؤلاء الذين تمنَّوا من قبل لو كانوا مكان قارون فأوتوا ما أوتيه من كنوز يعزّ إحصاؤُها. ومن نماذج ما يستعين فيه المتلقي بهذه القرينة في القرآن أيضا لرفع اللبس عن بعض المواطن في الخطاب الذي يتلقاه، قوله جلَّت قدرته: ﴿عادا وثمودًا وقد تبيَّن لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعْمَالَهم فَصَدّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾ (العنكبوت. 38) . إن هذه الآية في حالة تلقيها معزولة عن سياقها النصي، أي في غياب القرينة، يبقى جزءٌ من معناها مُلْبِسًا على متلقيها، فَبِنْيَتُها اللفظية لا تُنْبِئُه بأي شيء ذي علاقةٍ بمساكن عاد وثمود، لأن مفعول الفعل «تبيّن» لم تصرح به الآية، فانكشاف المعنى له (أي للمتلقي) رهن بما يرفع الحجب عن المفعول المستغنى عنه، وهو ما يتحقق برجوعه إلى القرينة المتمثلة في ما ورد في الآيتين

(1)* لم يُشِر الزمخشري في الكشاف إلى هذا الحذف لأنه قرأ « لَخُسِفَ بنا » حسب رواية ورش بدلاً من « لَخَسَفَ بنا » حسب رواية حفص، يُنظر الكشاف، مرجع سابق، 192 / 3

اللتين تقدمتاها: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا، فقال يا قومي اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ (العنكبوت. 36 - 37). إن سياق هاتين الآيتين يبين أن الأمر يتعلق بالعذاب الشديد الذي يُنزله تعالى على الأقوام المفسدة المكذبة بِرُسُلِهِ. فما تبيّنُه مساكن عاد وثمود هو العذاب الأليم أو الهلاك الذي أَصَابَهُم به المولى عزَّ وجل فلم يُبقِ منهم أحدًا وبقيت ديارهم شاهدة عليهم، لذلك يقول الزمخشري في« وقد تبيَّن لكم»:

« ذلك يعني ما وصفه من إهلاكهم (من) جهة (مساكنهم) إذا نظرتهم إليها عند مروركم بها [...][1]». على هذا فإن ما تقدم الآية محلَّ الإضمار هو القرينة غير اللفظية التي يستعين بها المتلقي في إدراك مقصدها التبليغي، فالآية الثامنة والثلاثون من سورة العنكبوت تُخْبِرُ باللفظ الصريح عن بقاءِ مساكن عاد وثمود، ولكنها لا تُخبر على وجه الدقة والتحديد وباللفظ عما حدث لقاطنيها، في حين أن الآيتين الأُخريين (36 و37) من السورة تُخبران عن بقاء مساكن قوم شعيب، إذ لم تشيرا إلى أي ضَرر أصابها، أما سكانُها فأضحوا جاثمين، أي أصبحوا جثثًا لا حياة فيها أو« باركين على الركب ميتين» كما قال الزمخشري[2]، فالمتلقي يدرك في الحالتين أن الديار بقيت قائمة شاهدة على أهلها، أمّا المُستغنى عن ذكره في الآية 38 وهو مصير قوم عاد وثمود فإنه يدركه من خلال مصير قوم شعيب الذي مرَّ عليه ذكره في الآيتين 36 و37 من السورة، فلا يقع له أي لَبْسٍ في فهم ما أضمرته الآية التي تلتهما، باعتماده على « ما جرى من الذكر». وخلافًا لمثل هذا الاستخفاف أو الحذف الذي يطال البنية اللفظية للخطاب من دون أن يؤثر سلبًا على بنيته الدلالية ومنها على عملية التواصل، فإنَّ منشئ الخطاب يضطر في بعض

(1) -الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق 3 / 206.

(2)- الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق 3 / 206 .

المواقف إلى توسيع بِنْيَتِهِ اللفظية من دون أن تصحب الزيادات اللفظية التي يلحقها بها أية إضافة للمضمون الأساسي للخطاب. وهذه حالة أخرى من الحالات التي يؤثر فيها المتلقي في صناعة الخطاب، لأن ما يستهدفه صاحبه من توسيع بنيته اللفظية هو مزيد من الإبانة تُزيلُ عن ذهنه (أي المتلقي) التباسًا ما أو تعفيه عن استفهام قد يشغله، فصانعُ الخطاب في مثل هذه الحالات يستدرك ذلك على سبيل الاستباق. إن هذه الزيادة العارضة [1]* في الخطاب تكون « إمَّا مجرد تكرارله أوزيادة لفظية من وضع اللغة مثل: « جاء نفسه « أو» **ذهبوا أجمعينّ**»، تجعل تحت تصرف المتكلم كوسيلة وضعية لغوية للتوكيد والتوضيح »[2].

من هذه الزيادات العارضة التي يلجأ إليها منشئ الخطاب لرفع لبسٍ أو للإجابة المُسبقة على تساؤل قد يراود ذهن المتلقي (أوالمتلقين) أثناء استقبال الخطاب، «**الجملة المعترضة**»، كما في الفقرة الآتية من رواية عزالدين جلاوجي« سرادق الحلم والفجيعة »، فقد جاء فيها أن الشيخ المجذوب قال: « سمعت جدي يقول - **وكان من الصالحين المخبتين الصادقين**- إن المدينة كانت واحة من نخيل... الكلام فيها موسيقي والنظر إمعان ...» [3]

إن المضمون المعنوي للمعترضة: « كان من الصالحين المخبتين الصادقين» ليس عنصراً أساسيًا في البنية الدلالية للخطاب الذي شرع المتحدث في هذا المَوْضِع منه في تقديم صورة عن المدينة موضوع الحديث في الرواية في زمن مضى، ولكنه لم يُقدم تقاسيم هذه الصورة كاملة لإمساكه عن الكلام فاسِحًا المجال للصمت الذي وُظِّفَ في الرواية ليكون علامة على القهروالموت اللذين خيما على المدينة. فمضمون الجملة المعترضة هنا لا صلة له بهذا القصد التبليغي، فالمتوخَّى منها هو إعطاء فكرة للقارئ عن هوية مصدر

(1)* التسمية للأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، يُنظر الخطاب والتخاطب، ص69

(2) -عبد الرحمن الحاج الصالح، الخطاب والتخاطب، ص69..

(3) - عزالدين جلاوي «سرادق الحلم والفجيعة» (رواية) مرجع سابق، ص. 34.

الخبر المروي على سبيل الإبانة والتوضيح لدفع الشك الذي قد يُسَاوِرُهُ فيما يخص صدق الخبر، أما بعد ذلك فمضمونها مستقل عن القصد التبليغي الذي أشرنا إليه، لأن ما يهدف إليه صاحب الخطاب هو نقل الإحساس بالموت المخيم على المدينة إلى الذات المتلقية ومعادل هذا الموت هو الصمت أو انقطاع الكلام قبل إن تكتمل الفكرة، وليس هناك أخطر في حياة البشر من اغتيال الأفكار، لأنه اغتيال للعقل الذي كرم به الله عزَّ وجلَّ الإنسان على بقية المخلوقات، فحياة بلا عقل هي الموت بعينه بالنسبة إلى البشر، وانتزاع العقل من الإنسان هو تَشْيِيئُهُ (chosifier)، وهذا القصد لا تنقله إلى المتلقي الجملة المعترضة ولا تُسهم في صناعته، لذلك قلنا إن وظيفتها في مَوْضِعها محدودة، فهي ترفع إبهامًا يتَّصل بهوية المصدر الأول أو الرئيس للخبر ليس غير، ولا علاقة لها بالإحساس بالقهر الفظيع المعادل للموت واغتصاب الحياة من الإنسان الذي يهدف الخطاب أوقل صاحب الخطاب لتوليده في الذات المتلقية، سوى إن هذا لا يُفرغُها من وظيفتها الإنبائية في الخطاب من جهة أن مضمونها الدلالي رافقه مضمون إفادي أو إعلامي[1]* يُنْبِئُ القارئ بما لا علم له به من قبل وهو تلك المعلومات التي قدمتها عن مصدر الخبر الذي رواهُ الشيخ المجذوب.

فضلا عمّا تحدثنا عنه وحاولنا إظهار أهميته لا في صناعة الخطاب فقط وإنما في تلقيه وإدراك مقاصده أيضًا، هناك وسائل أخرى تُسهم في ذلك وتُعَدُّ من القرائن هي الأخرى، ولكن ما يميزها هو ارتباطها بالخطاب الشفوي، فهي توجد في الظروف الحافة بالخطاب، أي إنها ترافقه في أثناء جريانه وتلقيه في للوقت نفسه، فهي ذات علاقة وثيقة بمقام التواصل(situation de com-munication)، وبوساطتها يُعزّز صاحب الخطاب (الشفوي) ما يريد إيصاله

(1)* لأن هناك فرقا بين المضمون الدلالي والمضمون الإفادي أو الإعلامي؛ فإذا كان الخطاب لا يحمل لمتلقيه جديداً يضاف إلى علمه السابق، فإنه يكون ذا مضمون دلالي وخاليا من أي مضمون إفادي أو إعلامي. يُنظر عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب ص.173 هامش 1.

إلى متلقيه ويزيدُه وضوحًا، أو يعبر بها عن معانٍ من دون أن يُفرد لها لفظًا في خطابه، كما تقوم للمتلقي مقام الوسيلة التي تُعينه على الإدراك الجيد لما يصله من معنى عن طريق اللفظ أو حتى إدراك ما لم يأت في الخطاب بعبارة صريحة، كما هي الحال عندما يُعوّض المتكلم مالم يذكره صراحة بطريقة إلقائه خطابه، فتراه يُمَدّدُ الصوت أو يُفخّمُه عند تلفُّظِهِ ببعض عباراته ليدل على مالم تدل عليه الكلمة أو العبارة التيّ لم يُوردها في البنية اللفظية لكلامه، فكما ذكر ابن جِنّي، إذا كان مثلاً بصدد الحديث عن سير في ليلٍ طويل، فبإمكانه أن يدل على هذا المعنى من دون أن يورد له لفظًا وذلك بقوله: «**سير عليه ليل**» مع الامتداد بالصوت وتفخيمه في « ليل» فيحسُّ المُخَاطَبُ « في كلام القائل لذلك من التطويع والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك » ويضيف يتحدثُ عن هذا الصنف من القرائن التي يتوسل بها صاحب الخطاب (الشفوي)، لإيصال معانٍ إلى مُخاطَبه (أو مخاطَبيه) من دون أن يَخُصَّها بصياغةٍ لفظية: ((وكذلك إن ذممته (أي الشخص الذي تتناوله في الكلام) وتُزَوِّي وجهك وتقطبه فيُغْنِي ذلك عن قولك «إنسانًا لئيما»[1]. وبالنظر إلى أهمية هذه الوسائل غير اللغوية المرتبطة بمقام التواصل بالنسبة إلى المخاطِب ومخاطَبيه، فإنها لَقيَت اهتمامًا ذا بالٍ من بعض القدماء في التراث العربي، فما ورد عند الجاحظ في البيان والتبيين عن الإشارة بوصفها نوعًا من أنواع الدلالة التي يعتمد عليها الإنسان في الإفصاح عن المعاني التي يَرُوم إيصالها إلى متلقيه، شديد الصلة بما نحن فيه، ففي هذا الإطار يتنزل قوله ((وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان))[2].

(1) - ابن جني، الخصائص، 2/37، وينظر، عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص.58.

(2) - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح، عبد السلام محمد هارون، ط.3، القاهرة، 1963، 1/79.

ففي هذا الكلام تنصيصٌ واضحٌ على أن اللغة تجد في الإشارة دعامة كبيرة في حسن التعبير عن المقاصد التي يبتغي منشئ الخطاب (الشفوي) تبليغها الى جمهوره، فما يصل منها إليه عن طريق السمع يتدعم بما يراه من إشارة من المتكلم لتأكيد المعنى الذي يقدمه اللفظ أوليزيده وضوحا ويرفع عنه لباسا ما يكون قد اعتراه ، بمعنى إن الإشارة في هذه الحالة تساعد اللغة على الانتقال بالمعنى من الخفاء الى التجلّي ليصبح في متناول أفهام المتلقين. وفي التأكيد على مثل هذا الدور الذي تؤديه الإشارات في التواصل بين المتخاطبين يذهب بعض الباحثين في مجال الاتصال حديثا إلى أن التواصل بالإشارة «يُسبق أو يرافق الخطاب ويمكنه حتى الإحلال محله لنقل بعض الرسائل»message«[1]

وفي هذا السياق أيضا يقول ابن قيم الجوزية يتحدث عن هذه البدائل التي يلجأ اليها صاحب الخطاب (الشفوي) لتقوم له مقام اللفظ أولتعزيزه في الإعراب عن بعض الأغراض التبليغية التي يريد إيصالها إلى مستمعيه « معنى الإشارة تدل عليه قرائن الأحوال من الإيماء باللحظ وهيئة المتكلم، فقامت تلك الدلالة مقام التصريح بلفظ الإشارة، لأن الدال على المعنى إما لفظ وأما إشارة و أما لحظ»[2]. فمثلما يستعمل المتكلم هذه الإشارات في خطابه لتكون عوضا عن اللفظ للإفصاح عن أغراضه، فإن المتلقي يعتمد عليها هو الآخر في استشفاف المقاصد المعبر عنها من خلالها[3]*، ومنه تتأكد لنا أهميتها، كما تقدمت الإشارة، لا بالنسبة الى المخاطِب في التعبير عن أغراضه، وإنما بالنسبة إلى المخاطَب أيضا الذي يترجمها إلى دلالات ينفذ عبرها إلى الأغراض التبليغية التي يستهدفه من خلالها مُخاطِبه.

(1) - Christian Baylon, Xavier Mignot, La communication, opt,cit,p144

(2) - ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، نقلا عن عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب و التخاطب ص58.

(3)* يجب التذكير بأن بعض الإشارات تختلف دلالاتها من ثقافة الى أخرى، راجع في ذلك: Christian Baylon, Xavier Mignot, La communication, opt,cit,p144

خلاصة:

نخلص من كل ما تقدم إلى التأكيد على أن منشئَ الخِطاب لا يتفرد بصناعة خطابه، إنما يُشرك دائما جمهوره الواقعي أو الافتراضي في إنشائه بكيفيات حاولت السطور السابقة إلقاء بعض الضوء عليها، وهي مشاركة تنفي عن المُخَاطَب (أو المخاطَبين) قارئا كان أم مستمعًا السلبية في تلقي الخطاب الذي يستهدفه وتؤكد حضوره في بنيته وهو حضور تمليه نجاعة عملية التواصل اللغوي ذاتها لأن تجاهله سواءً أكان فردًا أم جماعة ينعكس سلبًا على فعاليتها بل قد تنجم عنه قطيعة بين الخطاب والجمهور الذي يستهدفه مؤلفه من خلاله. ومثلما أن منشئ الخطاب يعتمد في نسج خطابه على وسائل توفرها له اللغة وعلى وسائل خارجة عن اللغة من حيث هي أوضاع يتقاسمها مع مخاطبيه أو بالأحرى يتقاسمون منها على الأقل القدر الذي يحقق التواصل بينهم، فإن المتلقين يعتمدون هم الآخرون في فَهْم فحوى الخطاب على ما هو لغوي وعلى ما هو غير لغوي بالمفهوم الذي حاولنا بيانه.

إذا كانت هذه الوسائل أو الأدلة غير اللغوية لا تُباري اللغة في درجة فعاليتها الاتصالية، فإنه، على الرغم من ذلك، لا يمكن الاستغناء عنها في التواصل عن طريق اللغة فهي تقترن في الخطاب مع الأدلة اللغوية مشكلة معها شبكة دلالية متلاحمة العناصر لتبليغ المقاصد سواء أكان التواصل كتابيا أم شفويا[1]*، وبناءً على ذلك يكون قد تبين لنا أن الخطاب في صناعته وفي تلقيه يتعاضد فيه ما هو لغوي وما هو غير لغوي، فنجاعته لا يتفرد بها أحدهما دون الآخر إنما تتحقق بهما مندمجين متكاملين تكاملا عضويا لا تنفصم عُراه، وإلا تأثرت عملية التواصل سلبا بما يلحق وحدتهما من تصدع، فيخفق الخطاب في بلوغ الغرض المتوخى من صناعته.

(1)* مع تفرد الخطاب الشفوي بوسائل تبليغية ذات علاقة بشفويته سبق الحديث عنها.